

رحلتي مع
صلاح الدين الأيوبي

محمد مؤنس عوض

دائرة الثقافة الشارقة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رحلتي مع

صلاح الدين الأيوبي

محمد مؤنس عوض

رحلتي مع
صلاح الدين الأيوبي
(1138-1193م)

قطرات من شلالات الذاكرة

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2017م

الناشر: دائرة الثقافة ـ حكومة الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5123333 9716+
براق: 5123303 9716+
بريد إليكتروني: sdc@sdc.gov.ae

الطبعة الأولى: 2017

953.07393
م م . ر مؤنس ، محمد
رحلتي مع صلاح الدين الأيوبي (1138-1193م): قطرات من شلالات الذاكرة / محمد مؤنس . –
الشارقة، الإمارات العربيه المتحده : دائره الثقافة، 2017
190ص ؛ 21 x 14سم.
1- التاريخ الإسلامي 2- الدوله الايوبيه 3- الحروب الصليبيه
4- صلاح الدين الايوبي (1138-1193 م = 532-589 هـ) أ- العنوان

ISBN: 978 9948 23 710 5

الإهداء

إلى مصر.. قدس الأقداس

وملهمة الروح.. ونبع شلالات العشق المنهمرة..

وإلى شقيقتها سوريا العزيزة.. زهرة الياسمين الرائعة

التي ستعود بإذن ربها أجمل مما كانت !!

المقدمة

هذا كتاب ثقافي يجمع بين الأدب والتاريخ، وفيه أسرد للقارئ العزيز رحلتي مع صلاح الدين الأيوبي (1138- 1193م)، فارس الإسلام الأشهر إبان عصر الحروب الصليبية، بعد أن أنفقت في دراسته أعواماً عديدة قاربت الأربعين عاماً، وأصدرت في شأنه (13) كتاباً.

من جانبي، أتصور أن رحلتي مع ذلك السلطان المجاهد البارز، أقدمها من أجل أن تكون حصاد قلم وتجربة عمر مع كتابة التاريخ؛ حتى تضيء الطريق لمن يتجه إلى البحث والدراسة في تاريخ عصر الحروب الصليبية الصاخب بالأحداث والعامر بالصراع العالمي خلال العصور الوسطى.

في تقديري، أن القارئ الذي طالع مؤلفاتي التي أصدرتها من قبل عن صلاح الدين الأيوبي، سوف يدرك الخلفيات الفكرية التي مر بها كاتب هذه السطور، ومن خلالها أعد تلك المؤلفات.

من ناحية أخرى، أرجو أن تقرأ الصفحات التالية على أنها استراحة محارب، أو أن نورساً من النوارس آن له أن يتأمل رحلته التي قطعها في سماء الفكر – وما أرحبها – بعد أن أجهده السفر، وأتعبه الترحال، وأدرك أكثر من ذي قبل ضرورة البوح عما يجيش بروحه من أحاسيس ومشاعر وآفاق، عن تجربة عاشها بكل ذرة من ذرات روحه العامرة بالحب والعطاء لدروس التاريخ، والتي لا تزال تنبض بالحياة، خاصة إذا كانت عن فارس الإسلام النبيل في عصر الحروب الصليبية.

يؤكد المؤلف أن القارئ الباحث عن الحقيقة، إذا ما وجد في الصفحات التالية دليلاً على الصدق الصادق الصدوق، وعلى الأمانة الأمينة، وتمكن من أن يجد شعاعاً من الضوء في قلبه وروحه من أجل تجديد ذكرى ذلك الفارس الذي لم يكل ولم يمل يوماً من أجل الجهاد لاستعادة بيت المقدس زهرة المدائن التي هي عبارة الأصل وكانت ولا تزال وستظل، إذا وجد ذلك، فهذا ذروة المبتغى وقمة المشتهى للمؤلف!!.

أترك القارئ الآن لكي يتصفح شلالات الذكريات والأفكار، من أجل معايشة صلاح الدين الأيوبي ليصبح تاريخاً ينبض بالحياة، بل بمنتهى الحياة!!.

وأردد دوماً قول الحق تبارك وتعالى: «وفوق كل ذي علم عليم» صدق الله العظيم.

-1-

طفولتي وصلاح الدين

بدأت رحلتي مع صلاح الدين الأيوبي مبكراً!! عندما كنت طفلاً صغيراً أسير مع والدي في أحد شوارع ضاحية مصر الجديدة التي عشقتها منذ زمن مبكر، وكان والدي –عليه رحمة الله تعالى– يتصادق معي ويتحادث معي في كافة الأمور منذ ذلك العمر الأخضر!! وإذا به ذات يوم يقول لي: صلاح الدين بطل حطين الذي طرد الصليبيين من القدس!!

هذه العبارة ظلت محفورة في الذاكرة، لا تقضي عليها الأيام، وما زلت أتذكر الزمان والمكان الذي كنت أستمع فيه إلى والدي وهو يقول لي هذه العبارة.

كان والدي رجلاً تربوياً، يدرك عن يقين أهمية نماذج التاريخ في صنع القدوة الحية في عقول الأبناء أطفالاً وشباباً، لذلك روى لي قصة فيها العبارة المذكورة.

لم أكن أتصور -بداهةً- أن هذا الاسم سيكون دافعاً لي لدراسته عبر (13) كتاباً، فكأن والدي غرس بذرة صغيرة صارت مع توالي الأعوام غابة اشتياق، وسهول حنين لدراسة ذلك الفارس النبيل الذي دخل التاريخ من أوسع الأبواب.

ويبدو أن صلاح الدين كان ثالثنا أنا ووالدي! إذ كان أبي لا يميل إلى مشاهدة الأفلام المعروضة في السينما، خاصة عندما كنا في مرحلة المراهقة، بل كان يراقب ما نراه في التلفاز من أفلام.

و مع ذلك، هناك حادثة لا أنساها، إذ قدم الوالد يوماً وقال لي: «اذهب يا مؤنس إلى السينما كي تشاهد فيلماً هناك»!! عقدت الدهشة المدهشة لساني، وتوقف لساني لبرهة، وسألته: «ماذا تقول؟!».

فإذا به يقول: «هناك فيلم اسمه الناصر صلاح الدين، وقد شاهدته وأُعجبت به... اذهب كي تشاهده»!!.

وتكرر الأمر منه عندما طلب مني مشاهدة فيلم «قاهر الظلام» عن الكتاب الذي ألفه كمال الملاخ مكتشف مراكب الشمس، والصديق الحميم لعميد الأدب العربي صاحب البصيرة طه حسين.

أترحم الآن على الثلاثة معاً؛ صلاح الدين، وطه حسين، ووالدي الذي كان يدرك أهمية القدوة والنموذج في غرس القيم والمُثل العليا، فاكتشفني، وأعانني على اكتشاف نفسي، فصرت أفتخر به أنه أبي وأترحم عليه كثيراً.

أتساءل الآن: مَن مِن الآباء الآن يحفز أطفاله على اتباع القدوة من خلال ذكر الأعلام الخالدين بإذن الله تعالى؟!

أتمنى مخلصاً أن تكون علاقاتنا مع أطفالنا فرصة ذهبية لزرع القيم التربوية والتحدث عن الأمجاد من أجل استخدام التاريخ كحافز، فمن أدراك يا عزيزي القارئ؛ لعل هذا الطفل الصغير الذي في بيتك مشروع عالم خبير، أو بطل من الأبطال، أو طبيب بارع، أو مهندس ناجح، لذا تعامل معه من هذا المنطلق، وتحاور معه لاكتشاف كوامن الإبداع والمواهب فيه؛ لأن مرحلة الطفولة هي المقدمة الحقيقية لصورة المستقبل، فإذا أحسنا استغلالها، كان لذلك أثره العميق على تكوين الطفل عندما يصبح شاباً يافعاً.

-2-

عمرة باسم السلطان

تَحرق السلطان خالد الذكر، شوقاً لأداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة في الحجاز، وكثيراً ما راودته تلك الفكرة التي ألحت على عقله وقلبه وروحه إلحاحاً عظيماً.

كانت نفسه تهفو إلى زيارة أشرف الخلق محمد بن عبد الله إمام المجاهدين الزاهدين الخاشعين، ولكن كيف له أن يحقق تلك الأمنية التي هي فعلاً وحقاً أمنية الأماني وذروة المبتغى وقمة المشتهى؟

لقد وقفت أعباء الجهاد والمعارك التي خاض غمارها، حائلاً دون تحقيق ذلك، كما أن المرض وقف هو الآخر ليصده عن رؤية تلك المواضع الإسلامية المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا وقفت السياسة والحرب برفقة المرض، كي تخبر السلطان أن أمنيته من العسير أن تتحقق، على نحو جلب الحزن إلى قلبه، ولكن دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً.

ذات يوم قررتُ القيام بعمرة باسم صلاح الدين الأيوبي.. فإذا كان ذلك الفارس الفذ لم يتمكن في حياته من القيام بالحج أو أداء عمرة، فلا أقل من أداء عمرة باسمه هناك، لعل الله تبارك وتعالى يتقبلها.

عندما أخبرت أسرتي بذلك، تملكتهم الدهشة التي عقدت ألسنتهم، وكان الاستغراب مكملاً لها! نعم عمرة للسلطان، هذا أقل ما أستطيع القيام به، وبالفعل عقدت العزم على ذلك، وسافرت من مطار الشارقة إلى مطار الملك عبد العزيز بجدة عروس البحر الأحمر، وواصلت الرحلة إلى مكة المكرمة، وقمت بأداء العمرة، وعدت إلى الشارقة، والقلب جذلان، والروح سعيدة، والنفس ارتدت ثياب البهجة المبهجة التي لا تعرف نهاية؛ لأن ما قمت به لم يفكر فيه أحد – هكذا أتصور – ولأنها عمرة لوجه الله تعالى، لا رياء فيها ولا سمعة.

أتصور أن السلطان خالد الذكر، لم يكن يخطر بباله يوماً، أن أحداً سيقوم بأداء العمرة عنه! وهكذا عاشت ذكراه كالنهر المتدفق الذي يروي الآخرين عبر عدة قرون، على نحو يحفزنا نحو رد الجميل، وإكمال ما يكون قد شاب حياته من تقصير عن أداء إحدى الفرائض، اضطر إليه اضطراراً، والكمال لله جل شأنه وحده!!.

نم أيها السلطان في قبرك هانئاً؛ فإن عمرة باسمك قد كتبها أحد كتاب تاريخك الحافل بالجهاد.

-3-

صلاح الدين والموسوعات

عندما كنت معيداً في بداية طريقي العلمي، وذلك عام 1980م، وأتعجب كيف هرولت بي الأيام بتلك الصورة المحيرة، والتي تحير الحيرة ذاتها! توجهتُ إلى دار الكتب في مبناها القديم في باب الخلق، ثم إلى مكتبة جامعة القاهرة، وبحثت في نحو عشرين موسوعة عالمية بالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية عن مادة صلاح الدين، فوجدت أنه حاضر في كل الموسوعات، وصار أمراً مؤكداً لا يمكن تجاهله.

الأمر العجيب أن كافة كتّاب الموسوعات المذكورة أشادوا بالسلطان، لاسيما أخلاقه وفروسيته الرائعة التي شهد له بها حتى أعداؤه الصليبيون!!

إذاً السلطان له الصيت الوافر عالمياً، ولم يكن يوماً قائداً محلياً محدود القيمة.

هكذا، أُلفتْ عنه آلاف الكتب بالعديد من لغات العالم خاصة العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والفارسية والأوردية، وغيرها، ناهيك عن مادة صلاح الدين في الموسوعات العالمية.

هكذا من خلال تلك المرحلة الباكرة من حياتي العلمية، أدركتُ أن ذلك السلطان أشبه بالشجرة الخالدة، ذات الاخضرار الدائم، والربيع المتجدد، الذي لم يعرف يوماً خريفاً!! وأن جذورها ضاربة في عمق التاريخ، أما فروعها فهي في عنان السماء وهو أمر ما كان له الحدوث إلا بإرادة الله جل جلاله!!.

أتعجب من ذلك الإجماع على صلاح الدين الأيوبي، وكأننا أمام استفتاء حقيقي غير قابل للتزوير أو التبديل أو التغيير، فهل هناك حضور سياسي بمثل هذه الدرجة؟ لا أتصور، ودونما مبالغة وربما على نحو لن يتكرر.

-4-

سيرة صلاح الدين لابن شداد

عزيزي القارئ، إذا بحثت عن روح صلاح الدين الأيوبي، وأردت أن تستمع إلى خفقان قلبه، بعد قرون من رحيله، سأنصحك بقراءة كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» المعروف بـ«سيرة صلاح الدين الأيوبي»، من تأليف قاضي العسكر بهاء الدين بن شداد (ت: 1234م)، الذي لازم السلطانَ طيلة الست سنوات الأخيرة من حياته، والذي كان ملاصقاً له من خلال صداقة فريدة بين المؤرخ والسياسي، وبالتالي عرف العديد من الجوانب الشخصية، بل والنفسية التي لم تتأت لغيره من المؤرخين.

امتاز ابن شداد عن غيره من المؤرخين، بأنه قاضٍ ومؤرخ،

وبالتالي كان أحرص الناس على الموضوعية، والبحث عن الحقيقة قدر استطاعته، وقد لزم صلاحَ الدين الأيوبي، وكثيراً ما جرت الأحاديث بين الرجلين على نحو يؤكد تأثر صلاح الدين بأفكار ذلك الفقيه والقاضي والمؤرخ.

عندما نطالع النوادر السلطانية؛ نفاجأ بالتفاصيل الضافية، والاهتمام بإيراد أمر العامة أو البسطاء أو قل المهمشين الذين لم يهتم بهم المؤرخون المعاصرون، على نحو دل بجلاء على أننا أمام مؤرخ يشعر بالآخرين، ولا يتعالى عليهم.

ومثلما كان كتاب «النوادر السلطانية» مصدراً فريداً لتاريخ حياة السلطان طوال الست سنوات الأخيرة من حياته، فإنه كان مصدراً مهماً لمرضه الأخير ووفاته في فجر الأربعاء 4 مارس 1193م.

نظراً لأهمية ذلك الكتاب، وجدناه مصدراً أساسياً لكل مؤرخ تناول سيرة ذلك السلطان منذ أخريات القرن الثاني عشر الميلادي حتى زماننا هذا.

وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب المذكور يدل على انحيازه لصلاح الدين من خلال كلمة «المحاسن اليوسفية»، إلا أن ذلك القاضي والمؤرخ لا يمكن أن يوصف بأنه كان ضحية كاريزما ذلك السلطان، بل جاء عرضه لسيرته موضوعياً ومتوازناً، وعلينا ألّا نغفل عن عموم ذلك الانحياز، فالعصر بأكمله - إلا ما ندر – انبهر بذلك الفارس الذي بالفعل امتلك بجدارة أخلاق الفروسية الشرقية التي نافست، بل وتفوقت على فروسية الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، على نحو خاص عصر الحروب الصليبية.

في رحلتي مع صلاح الدين، قرأت الكتاب المذكور مرات عديدة، والعجيب أنه متجدد الفائدة، في كل قراءة أجد فيه جديداً لم أدركه في القراءة السابقة؛ مما دل على أننا أمام نص فريد جمع فيه صاحبه بين الأدب والتاريخ وعلم النفس، واتساع الأفق الممزوج بالحكمة، لذلك رأيت أن صلاح الدين الأيوبي كان – بالفعل – محظوظاً عندما تخير لصداقته بهاء الدين بن شداد، الذي تكفل بكتابة تاريخه، فقدم لنا أمتع سيرة وصلت إلينا من عصر الحروب الصليبية عن قائد مسلم من قادة الجهاد ضد الغزاة الغربيين في ذلك الحين.

-5-

عالمية اسم صلاح الدين

ذهبت لشراء بعض الاحتياجات من جمعية الشارقة التعاونية داخل الجامعة، وتحديداً داخل المجمع الطلابي، ووجدت شاباً من الفلبين، بالغ النشاط ووافر الحيوية، ويعمل بعشق حقيقي، بلا ملل ولا كلل.

وقد لفت نظري ما تمتع به من صفات إيجابية، ناهيك عن الإنجليزية الممتازة التي يتكلمها، وعندما سألته عن اسمه أجاب: صلاح الدين!

إذاً لقد وصل إلى هناك! هكذا شابٌ من الفلبين اسمه صلاح الدين!! عندما سألته عن سبب التسمية أخبرني أن والده من عُشَاق

التاريخ، وقد قرأ كتباً عديدة عن فارس الإسلام النبيل في عصر الحروب الصليبية، واشتد إعجابه به، ودعا الله تعالى أن يرزقه بابن يسميه صلاح الدين، ويتخلق بأخلاقه المعبرة عن الفروسية الإسلامية الراقية.

ذكَّرني هذا الأمر بشاب شاركني مرحلة الخدمة العسكرية في جيش مصر الباسل عام 1980م، كان اسمه صلاح الدين جرجس!! هكذا، أحد أقباط مصر شركاؤنا في عشق مصر حياةً وموتاً اسمه هكذا، وسألته هو الآخر، فأجاب نفس الإجابة!!

محظوظ أنت أيها السلطان خالد الذكر، حتى المسيحيون سموا أبناءهم باسمك!!

ما هذا السر؟ وما السبب في هذه الحيوية العجيبة؟ مات في 4 مارس 1193م، ولا يزال حياً بذكراه الآن، ونحن في عام 2016م!!

ما أعجب هذه الدنيا؛ أحياء ميتون لأنهم ما قدموا شيئاً لأمتهم، وغرقوا في بحر الأنانية ومحيط الامتلاك الواهم للمال!! وموتى تفيض سيرتهم بالحياة؛ لأنهم ما عاشوا لأنفسهم، بل للآخرين، تركوا التاريخ من بعدهم كي ينصفهم، فأنصفهم لأنهم خدموا وأعطوا ولم يأخذوا!!

هكذا، من حقي أن أصف السلطان خالد الذكر، صلاح الدين الأيوبي، بالفارس الذي رفع الله تعالى ذكره عبر القرون، فترك لنا تاريخا حياً يتحدى النسيان.

-6-

خصوصية تدريس صلاح الدين

خلال عملي بالمملكة العربية السعودية، على امتداد الأعوام من 1991 إلى 1997م، وتحديداً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها، التقيت بعالم فاضل من أبناء فلسطين العزيزة هو الأستاذ الدكتور/ محمود أبو الخير، وقد تخصص في أدب الحروب الصليبية، وتجاذبنا أطراف الحديث عن صلاح الدين الأيوبي، فأخبرني أنه عندما يشرح لطلابه أدب تلك المرحلة الفارقة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، يجد نفسه يلقي محاضراته بصورة عادية لا جديد فيها، إلى أن يصل إلى مؤسس الدولة الأيوبية خالد الذكر، وعندئذ يجد نفسه قد تملكته حماسة خاصة، وصار يظهر

أقصى ما لديه من علم ومن طاقة شعورية، وانفعال بأدب عصر الحروب الصليبية من خلال ذلك الفارس النبيل. أكدتُ له نفس الأمر، فعندما أشرح لطلابي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، تنساب شلالات الأفكار بصورة عادية، ولكن عند الوصول إلى الحديث عن صلاح الدين الأيوبي، أجد أن تاريخه يجعلني أكتشف نفسي من جديد.

وتتوالى الأفكار والتصورات، بل أثناء الشرح خلال المحاضرة، كثيراً ما يتفتق ذهني عن أفكار جديدة تماماً، فكأن موضوع ذلك السلطان وجهاد الصليبيين بمثابة قطعة الإسفنج التي تمتص ما حولها، أو مثل المغناطيس الجاذب لما حوله من قطع حديدية!! تكرر معي هذا الأمر مرات ومرات، بل ذات مرة اتصلت بي شركة إنتاج إعلامي من أجل عمل ثلاث حلقات عن عصر الحروب الصليبية، وتطلب ذلك الأمر مني السفر من الإمارات العزيزة إلى مصر الحبيبة، وسجلت بالفعل حلقتين، وكان فيها صديقي التاريخي صلاح الدين الأيوبي، وفوجئت أن الأفكار تتدفق والصوت يكتسب نبرة خاصة، بل انفعلت انفعالاً خاصاً عند الحديث عنه، وكدت ألّا أملك السيطرة على نفسي، وصفق القائمون على التصوير لي، وفي الواقع كان من المفترض أن ذلك التصفيق كان لذلك الفارس الذي ملأ الدنيا وشغل قلوب وعقول الناس حباً وتقديراً.

-7-

صديقي صلاح الدين

صديقي صلاح الدين!! هذه هي العبارة العجيبة التي كثيراً ما أرددها في محاضراتي مع أبنائي وبناتي الطالبات.

الصداقة لا تعني أبداً أن تعاصر إنساناً وتتعايش معه وجهاً لوجه، فكثيراً ما قامت علاقات صداقة في عالمنا هذا، وعند أول اختبار لها يكتشف المرء بالفعل أن من توهم صداقته كان بمثابة ألد الأعداء، وكشف أسراره، ووجه لها طعنة نجلاء، بعد أن خُدع في أمره بعد أعوام طوال، أخلص له ذلك المرء الذي خُدع فيه إخلاصاً رائعاً، بينما الآخر «أخلص» له في غدره وخيانته السوداء!!.

بعد أن تعاملتُ مع السلطان خالد الذكر على مدى أعوام طوال، صرت صديقاً له، وصار فعلاً صديقي الصدوق!

لم أجد في هذا الصديق التاريخي إلا كل خير، وأدركتُ بعد أن ألفتُ عنه أكثر من (12) كتاباً، أن تلك الصداقة كانت تنمو من كتابٍ لآخر، وأنها صارت أشبه بكائن حي ينمو كلما مرت الأعوام وتجددت ذكراه العطرة.

ما أحوجنا إلى التصادق مع أبطال التاريخ، وأن نستخدمهم كأداة إبداع يومية، ووسيلة تحفيز في حياتنا، لا نتركهم حبيسي الكتب وأسرى الماضي.

هكذا تأكد لي صدق مقولة «صديقي صلاح الدين»، نعم هو صديق حقيقي، وقد تشرفتُ بتلك الصداقة الصادقة الفريدة.

مع كل كتاب عنه، كانت صداقتي معه تنمو وتنضج وتصبح كياناً قائماً بذاته، والعجيب أني في كل كتاب أؤلفه عن ذلك السلطان، أجد شلالات الأفكار تتوالى، وأرى أبواباً كانت مغلقة تتفتح لي بانسياب ونعومة فريدة عجيبة!

وصداقتي مع ذلك السلطان جعلتني – بفضل الله تعالى – لا أكرر نفسي فيما أكتب، بل أسعى دوماً للجديد، كما أن تلك الصداقة هي نفسها التي زودتني بالعديد والمزيد من الأفكار الرائعة.

عزيزي القارئ، ما أروع الصداقة مع أبطال التاريخ؛ لأنها حقيقية، وما أصعب أن نتصادق في عصرنا هذا الذي غلبت عليه الماديات، وصار البحث عن صديق صدوق – إلا ما رحم ربك – مثل البحث عن نقطة سوداء في غرفة مظلمة.

مرة أخرى، عزيزي القارئ، فلنحاول الصداقة مع هؤلاء العظماء، وأخص بالذكر فارس الإسلام النبيل عصر الحروب الصليبية، صديقي العزيز، صلاح الدين الأيوبي!

-8-

إسحاق عبيد وصلاح الدين

في أحد أيام شتاء عام 1977م، وفي مدرج (107) بكلية الآداب –جامعة عين شمس– وقف رجل نحيل، حاد الذكاء، يملك صوتاً مميزاً عن غيره من خلال قدرة على الإلقاء والخطابة فريدة، لم يكن يدين بالإسلام.. وقف أمام تلاميذه ليقول لهم: «ثم دخل صلاح الدين العظيم بيت المقدس فاتحاً دون إراقة دماء الصليبيين، فدخل التاريخ فارساً نبيلاً متسامحاً»!!

السطور السابقة عن الأستاذ الدكتور/ إسحاق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى، ابن أسيوط العزيزة الذي حصل على الدكتوراه من جامعة نوتنجهام بإنجلترا في موضوع «روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين».

فيما بعد، اتضح لي أن ذلك المؤرخ البارز صاحب المكانة الدولية الرفيعة، دَرَّس له والدي في مدرسة «إخوان ويصا» بأسيوط منذ (60) عاماً، ودارت الأيام دورتها، ودرَّس لي ذلك العالم الفذ، وهكذا الحياة، وكان هذا الأخير من أوفى الناس الذين قابلتهم في حياتي، وظل يذكر والدي بكل خير، على نحو يندر مثاله في زمن الجحود ونكران الجميل الذي نحياه!

منذ عام 1977م إلى يومنا هذا، نشأت صداقة فريدة بيني وبين أستاذي د. إسحاق عبيد، وكثيراً ما تحدثنا معاً عن صلاح الدين الأيوبي، وقد قدره تقديراً عظيماً.

عندما امتدح صلاح الدين الأيوبي، تأملت عباراته جيداً، وأدركت أن ذلك المحاضر الفذ، كان دوماً متسامحاً، وموضوعياً، خاصة أنه كان قد ذكر لنا مقولة المؤرخ البريطاني الشهير السير ستيفن رنسيمان Sir Steven Runciman صاحب كتاب تاريخ الحروب الصليبية (A History of The Crusades الذي) وصف الحروب الصليبية بأنها آخر الغزوات المتبربرة Last of The barbarian invasions.

كان لامتداح أستاذنا د. إسحاق عبيد، لصلاح الدين، أكبر الأثر في عقلي عندما كنت أجلس طالباً صغيراً أستمع لمحاضراته الفريدة في تاريخ أوروبا العصور الوسطى.

وفي مناسبة دينية، سألته المذيعة: لو لديك كارت معايدة إلى من ترسله؟ فأجاب من فوره: إلى صلاح الدين الأيوبي، ذلك الفارس النبيل الذي قدم مثالاً فريداً للتسامح في عصر البرابرة الصليبيين!!

هذه العبارة تلخص على نحو فذ إسحاق عبيد ابن البداري الذي وصل بكفاحه إلى العالمية، والذي جعل صلاح الدين الأيوبي في سويداء قلبه، بل إنه ذات مرة قال لي في محادثة هاتفية: «إن ذلك الفارس يتفوق على فرسان الشرق والغرب ويتفوق على الإسكندر الكبير Alexander The Great الذي بالغ فيه أهل الغرب وسط موجات من الدعاية السياسية التي لا حد لها».

-9-

مؤرخو صلاح الدين

كان لصلاح الدين الأيوبي أكبر الأثر في تطوير الكتابة التاريخية عند المسلمين في عصر الحروب الصليبية، وخاصة لدى المؤرخين العراقيين والشاميين، وهو أمر يدعونا إلى تأمل أثر البطل التاريخي في إثارة المؤرخين للكتابة عن عصره وإنجازاته حتى تكون نبراساً للأجيال التالية.

في هذا المجال، تتضح لنا مساهمات عدد من المؤرخين البارزين الذين لا يكتب تاريخ ذلك السلطان دون التعامل مع مؤلفاتهم، ونجمل أهمهم على النحو الآتي:

- بهاء الدين بن شداد (ت 1234م): مؤلف «النوادر السلطانية

والمحاسن اليوسفية››، وهو كتاب يتناول سيرة صلاح الدين الأيوبي، وقد ذكرت من قبل أن خفقات قلب ذلك السلطان نجدها في ثنايا ذلك المصدر الرئيسي عنه، بالفعل كان ذلك القائد محظوظاً عندما تصادق مع ذلك المؤرخ الذي أحبه في الله تعالى، وجمعت صداقة فريدة بين الرجلين.

- العماد الكاتب الأصفهاني (ت 1201م): مؤلف كتاب ‹‹الفتح القسّي في الفتح القدسي››، و‹‹البرق الشامي››، وغيرها من المؤلفات، وقد كان رئيساً لديوان الإنشاء الأيوبي، وقد أجاد اللغتين العربية والفارسية، ويمتاز ما ألفه بغزارة التفاصيل، إلا أن اهتمامه بالمحسنات البديعية - ومنها المصطنع - جعل الاستفادة مما كتبه أمراً شاقاً.

- ابن الأثير الجزري (ت 1232م): مؤلف ‹‹الكامل في التاريخ››، و‹‹التاريخ الباهر في أتابكة الموصل الزنكيين››، وهو من أبرز مؤرخي الإسلام، ويعد المؤرخ المذكور فعلاً عبقرياً من عباقرة العراق في العصور الوسطى، وقد ألف إلى جانب الكتابين المذكورين، كتاب ‹‹اللباب في تهذيب الأنساب››، وكتاب ‹‹أُسد الغابة في معرفة الصحابة››، على نحو ضمن له أرقى مكان بين مؤرخي المدرسة التاريخية العراقية التي توصف بأنها المدرسة الأم؛ نظراً لتأثيرها الكبير على المدارس التاريخية الأخرى.

كان ابن الأثير كارهاً لصلاح الدين الأيوبي، نظراً لإسقاطه حكم الزنكيين، وهم أولياء نعمة ذلك المؤرخ، فعمل على أن يترصد لذلك السلطان العديد من المواقف التي حرص على إبرازها نكاية فيه،

ومع ذلك لا يمكن تجنب كتاباته عنه خاصة أنه عاصره حيث ولد عام 1160م، وقد عانى ابن الأثير من ويلات الحصار عندما حاصر صلاح الدين الموصل حاضرة شمالي العراق.

وعندما توفي صلاح الدين، كتب عنه ابن الأثير عبارات تدل على أنه ربما راجع نفسه، وامتدحه وذكر له تحريره لبيت المقدس كما فعل عمر بن الخطاب، وهذا يكفيه.

- أبو شامة المقدسي (ت 1267م): الذي ألف «كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية»، وفيه معلومات ضافية عن عصر صلاح الدين وعلاقته بنور الدين محمود، وأحداث توحيد الجبهة الإسلامية ومعركة حطين 1187م، والحملة الصليبية الثالثة 1189-1192م.

يُعد المصدر المذكور من المصادر الأساسية عن صلاح الدين الأيوبي، وعلى الرغم من عدم معاصرته إلا أنه أورد العديد من الوثائق فيه على نحو ميزه، ناهيك عن استفادته من المصادر المعاصرة.

إضافة إلى أن هناك عدداً من المصادر الأخرى المهمة التي يمكن إيرادها بإيجاز على النحو التالي:

- الهروي (ت 1225م): التذكرة الهروية في الحيل الحربية.
- الطرسوسي (ت 1193م): تذكرة أرباب الألباب.
- النابلسي (ت 1235م): لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية، صنعة الحي القيوم في تراتيب ديار الفيوم.

- ابن مماتي (ت 1209م): قوانين الدواوين.

- الوهراني (ت 1179م): منامات الوهراني ومقاماته.

يضاف إلى ذلك مؤلفات الرحّالة، وهي على جانب كبير من الأهمية؛ نظراً لأن الرحلة تعد عين الجغرافيا المبصرة، ومن أمثلة أولئك: الرحالة الأندلسي البارز ابن جبير (ت 1217م) مؤلف كتاب «تذكرة الأخبار في اتفاقيات الأسفار»، ويعد أمير الرحالة المسلمين في عصر الحروب الصليبية.

هكذا لدينا العديد من المصادر التاريخية عن صلاح الدين وعصره، على نحو كان له أثره في تسليط الأضواء الكاشفة على تلك المرحلة المحورية من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.

-10-

إحراق عسقلان

من أصعب القرارات التي اتخذها صلاح الدين في حياته، قرار إحراق عسقلان، حتى لا تقع في قبضة الصليبيين، ومنها يهاجمون بيت المقدس، خاصةً أنها كانت تمتاز بالأهمية الاستراتيجية بحكم قربها من الحدود مع مصر، ووُصفت بعروس الشام، ويلاحظ هنا أن مدينتين وصفتا بذلك الوصف هما: دمشق عاصمة بلاد الشام التاريخية العريقة، وعسقلان.

من المهم هنا تذكير القارئ بأن سياسة الأرض المحروقة، وحرمان الخصم من السيطرة على مناطق تدعمه في الصراع، سياسة قديمة في التاريخ، اتبعها القائد التونسي «حنا بعل» (هانيبال)

في صراعه المرير مع روما، كما أن الكاهنة الزناتية قد اتبعت نفس هذه السياسة بعد ذلك بعدة قرون مع القائد المسلم حسان بن النعمان.

بالفعل أصدر السلطان أوامره بإحراق عسقلان وأن يسبق هذا مغادرة أهلها لها، وقد ارتفعت الأصوات بالبكاء والصراخ لمغادرة الأوطان، كما ذكرت المصادر، كما بيعت العقارات والسلع بأسعار زهيدة، واشتعلت النيران في المدينة، وهكذا دفعت عسقلان الثمن خلال ذلك الصراع المرير بين صلاح الدين ومعه جيشه، والغزو الصليبي القادم من وراء البحر وعلى رأسه ريتشارد قلب الأسد (1189-1199م) وقواته ورفاقه.

اضطر السلطان لذلك الأمر، وكان الدافع الأساسي كما ذكرتُ، الحفاظ على بيت المقدس حتى لا يسيطر عليه الصليبيون، وكان لديه الاستعداد لفعل أي شيء في سبيل الحفاظ على تلك المدينة المقدسة التي عادت بعد معارك طاحنة كما حدث في معركة حطين الحاسمة عام 1187م.

ذلك الأمر، يؤكد لنا أن صلاح الدين الأيوبي خلال الصراع الحربي العنيف الذي شهدته الحملة الصليبية الثالثة، خاض مع جيشه العديد من الخطط الحربية، فهناك دعم حامية عكا المحاصرة، ثم أيضاً معارك مفتوحة، كما في حالة معركة أرسوف عام 1191م، ثم تحصين بيت المقدس، وقد شارك في هذا الأمر شخصياً، كذلك كان هناك اتباع سياسة الأرض المحروقة كما ذكرنا، وكل ذلك يؤكد على تعدد أشكال الصدام الحربي، وأن ذلك السلطان أجهدته تلك الأحداث، وكذلك جيشه، لذلك كله كان التوصل إلى صلح الرملة في 2 سبتمبر

عام 1192م، وهو الحل المثل بعد أن طال الصراع الحربي دون أن يتمكن الصليبيون من كسر إرادة المسلمين بقيادة ذلك السلطان المجاهد، كما أنه لم يتمكن من إلحاق هزيمة فادحة بهم، لذلك كان لابد من طرق بوابة الدبلوماسية للتوصل إلى حل متوازن بين الطرفين.

-11-

ابن عساكر مؤرخاً

عاصر صلاحَ الدين محدثٌ ومؤرخٌ دمشقي بارز، هو الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، الذي ولد بدمشق عام 1105م، بعد ست سنوات فقط من غزو الصليبيين لبيت المقدس.

ارتحل ذلك العالم إلى العديد من بقاع الشرق الإسلامي طلباً للعلم؛ فذهب إلى مدن العراق، وخراسان، والجزيرة، والحجاز، ويقال إن شيوخه بلغوا (2000) بين شيخ وشيخة، ومن بعد رحلة العلم عاد أدراجه إلى دمشق حيث مكث فيها (40) عاماً أمضاها في التدريس والتأليف.

ألف ابن عساكر العديد من المؤلفات نذكر منها:

1. تاريخ مدينة دمشق، وهو كتاب ضخم، وقع في (800) جزء، جمعت في (80) مجلداً، فهو أكبر تاريخ أُلف عن مدينة في الإسلام، ويقال إنه استغرق (10) سنوات في تأليفه.
2. المعجم، وهو معجم لمشهوري الرجال، وعلى نحو خاص الشافعية.
3. فضائل مقام إبراهيم.
4. فضائل مكة المكرمة.
5. فضائل المدينة المنورة.
6. فضائل عسقلان.
7. تبيين الاهتمام بالأمر والافتتان.
8. تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الحسن الأشعري.
9. معجم الصحابة.
10. فضائل عاشوراء.
11. فضائل المحرَّم.
12. الإشراف على معرفة الأطراف.
13. المستقصَى في فضائل المسجد الأقصى.
14. أربعون حديثاً في الجهاد.
15. أربعون حديثاً من الطوال.
16. كشف المغطًّى في فضل الموطأ.
17. كتاب فيمن وافقت كنيته كنية زوجته.

18. معجم في أسماء القرى والأمصار التي سمع بها.
19. من حديث سعد بن عبادة.
20. إتحاف الزائر.
21. الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد.
22. إجابة السؤال في أحاديث شعبة.
23. أحاديث أبي الأشعث الصنعاني.
24. أحاديث جماعة من أهل سوسة.
25. أحاديث بيت لهيا.
26. أحاديث بيت سط.
27. أحاديث البلاط.
28. الأربعون في الجهاد.
29. أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً في أربعين مدينة.
30. الأربعون الطوال.
31. الاعتزاز بالهجرة.
32. أمالي في الصوم.
33. البيان في فضل كتابة القرآن.
34. الاقتداء بالصادق في حفر الخنادق.
35. التالي لحديث مالك العالي.
36. تشريف يوم الجمعة.
37. التنزيه.
38. تقوية المنة على إنشاء دار السنة.
39. ثواب الصبر على المصاب بالولد.

40. الجواب المبسوط لمن أنكر حديث الهبوط.
41. أحاديث أهل حردان.
42. ذم من لا يعمل بعلمه.
43. الخماسيات.
44. ذم الرافضة.
45. ذم قرناء السوء.
46. ذم ذي الوجهين واللسانين.
47. ذم اليهود وتخليدهم في النار.
48. سباعيات في الأحاديث.
49. سعة رحمة الله.
50. الزهادة في بذل الشهادة.
51. الصفات.
52. العزلة.
53. عوالي شعبة.
54. عوالي مالك بن أنس.
55. فضل ذكر الله.
56. فضائل عمر رضي الله عنه.
57. فضل الجمرتين.
58. فضل أصحاب الحديث.
59. فضل رجب.
60. فضل سعد بن أبي وقاص.
61. فضل الجهاد.

62. فضل الربوة والنيرب وما حدث بهما.
63. فضل الصوم.
64. فضل رمضان.
65. فضل عبد الله بن مسعود.
66. فضيلة ذكر الله عز وجل.
67. ما وقع للأوزاعي من العوالي.
68. مدح التواضع وذم الكبر.
69. معجم الصحابة.
70. معجم الشيوخ النبلاء.
71. المعجم لمن سمع منه وأجاز له.
72. معجم النسوان.
73. مَن سمع مِن النسوان.
74. نفي التشبيه.
75. مناقب الشبان.

هذه بعض مؤلفات مفخرة دمشق ابن عساكر، وهي تؤكد على موسوعيته، وغزارة إنتاجه، وأنه بالفعل كان صاحب رسالة، وفهم دوره الحضاري في عصر الحروب الصليبية، لذلك لم يتوقف قلمه إلا بالموت، وقد بارك الله تعالى في وقته على نحو مكنه من إنجاز كافة تلك المؤلفات الغزيرة كما وكيفا.

لا ريب في أن ابن عساكر يؤكد عبقرية بلاد الشام التاريخية التي لا تحتاج إلى دليل، كما تؤكد تلك المؤلفات على إدراكه لقيمة الوقت،

فلم يضيعه إلا فيما يفيد، وهو يذكرني بالسيوطي (ت 1505م) في مصر مع وجود اختلافات بينهما.

لقد تصادق صلاح الدين مع ابن عساكر(*) ، وكان يشجعه على مواصلة التأليف والبحث، واعتبره من مفاخر بلاد الشام، تحديداً دمشق، وعندما توفي عام 1176م، سار السلطان صلاح الدين في جنازته حاسر الرأس على غير المعتاد، من هول خطب رحيل ذلك المحدث والمؤرخ الدمشقي البارز.

تلك لمحة عن محدث ومؤرخ بارز عاصره صلاح الدين الأيوبي، ولا تزال ذكراه حاضرة من خلال ما تركه من مؤلفات تدل على النهضة العلمية التي عاشتها بلاد الشام حينذاك.

(*) للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن عساكر انظر عنه كوركيس عواد في الكتاب التذكاري عنه، ط. دمشق ١٩٧٩م.

-12-

صلاح الدين ومؤلفوه

في حديث رائع مع المؤرخة القديرة د. عفاف صبرة أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة الأزهر، والتي لها إسهاماتها في تأريخ العصر الأيوبي وجهود صلاح الدين في جهاد الصليبيين، قلت لها: «إن كل من ألف كتاباً عن صلاح الدين عندما يلتقي بزميل له شاركه نفس الاهتمام التأليفي، يشعر الاثنان أنهما أبناء عائلة واحدة، مؤسسها صلاح الدين!!» فأيدتني تماماً في هذا الرأي.

هذا الشعور العجيب، لا نجده عند من يؤلف لأي شخصية تاريخية أخرى ويلتقي مؤرخاً آخر ألف كتاباً عنها، فلماذا صلاح الدين على نحو خاص؟ هذا هو السؤال العجيب، وأرى أن الله

تبارك وتعالى بارك في هذا القائد التاريخي الفذ للمسلمين في عصر الحروب الصليبية، بحيث أنه أوجد رابطة عجيبة «غامضة» بين كل من ألفوا عنه كتاباً!

نفس الأمر حدث لي عندما تحدثت مع د. فتحية النبراوي الأستاذة المؤرخة القديرة بجامعة الأزهر، وطرحت عليها نفس الفكرة، فأيدتني هي الأخرى، وكأننا أعضاء رابطة صلاح الدين الأيوبي.

وعندما حادثت المؤرخ العراقي الرائع ناصر ملا جاسم، الذي أعد أطروحته للماجستير عن صلاح الدين في كتابة المستشرقين الإنجليز والأمريكيين، شعرت أنني أحادث أخي أو أحد أقربائي، لمجرد أن صلاح الدين الأيوبي جمع بيننا.

إن السطور السابقة، تؤكد أن الحضور المتجدد لذلك الفارس صاحب التاريخ الحافل، والذي رحل عن دنيانا في 4 مارس 1193م، ولا يزال بيننا إلى الآن، لهو الدليل الناصع على أن الله تعالى أراد له التجديد لأنه أخلص في الدفاع عن دينه، وتسامح دونما تفريط، ورحل مريضاً كي يبقى حيا في العقول والقلوب.

-13-

الصوفية والرهبان الصليبيون

في شتاء عام 1979م، التقيت أستاذي الراحل د. أحمد رمضان أحمد بقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة عين شمس في دبلوم تاريخ العصور الوسطى، وقد فرض عليّ دراسة موضوع جديد هو: المواجهة بين الصوفية والرهبان الفرسان في عصر الحروب الصليبية.

لست في حاجة للحديث عن الصعوبات البالغة في دراسة الموضوع المذكور، ومع البحث في بطون المصادر اتضح لي أن المتصوفة في بلاد الشام شاركوا في الفتك بعناصر الرهبان الفرسان، وهم فرسان هيئة الأسبتارية Hospitallers الذين بدأ نشاطهم من

مستشفى في القدس كان يقدم خدماته لعناصر الحجاج والمرضى الذين يأتون إلى فلسطين للقيام بزيارة المقدسات المسيحية، وتطور أمرهم إلى أن صاروا رهباناً فرساناً يشاركون في المعارك الحربية ضد المسلمين، وشاركوا بالفعل في أبرز المواجهات بين الطرفين كما في معركة بانياس في عام 1157، التي جرت في عهد نور الدين محمود. ثم فيما بعد محاولة الفارس الصليبي المتعصب إرناط أو رينو دي شاتيون Renault de Chatillon الهجوم على الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز عام 1183م، ثم شاركوا في معركة حطين عام 1187م.

أما هيئة الداوية Templars فهم فرسان المعبد الذين حرص الصليبيون على إقامتهم حوالي عام 1118م، من أجل حماية الطريق الصخري الوعر بين يافا وبيت المقدس، الذي كمنت فيه عناصر المقاومة الإسلامية ضد الحجاج القادمين لدعم الكيان الصليبي في بلاد الشام.

فيما بعد شاركوا مثل الإسبتارية في معارك الصليبيين ضد المسلمين، كما امتلكوا القلاع الصليبية Crusader Castles في كافة المناطق التي سيطر عليها الغزاة في بلاد الشام.

تدريجياً؛ زاد نفوذ الإسبتارية والداوية حتى صاروا دولة داخل الدولة Imperia in Imperio، ولم يكن يسمح لأحدٍ أن يسائلهم سوى البابا شخصياً، وتصارع الفريقان معاً، وصار شغلهم الشاغل جمع الأموال لا المصلحة الصليبية.

من الملاحظ أن المؤرخ الصليبي وليم الصوري William of Tyre وجه سهام نقده لعناصر الرهبان الفرسان، وعلى نحو

خاص الداوية، ورأى أنهم كانوا من معاول هدم الوجود الصليبي في بلاد الشام.

وقد وصف المؤرخون المسلمون عناصر الرهبان الفرسان، بأنهم كانوا جمرة الإفرنج التي تحارب القوات الإسلامية بكل ما امتلكت من حماس.

بصفة عامة، في أعقاب معركة حطين في 4 يوليو 1187م، وقع حوالي (200) من فرسان الإسبتارية والداوية في قبضة صلاح الدين وقواته، فأمر عناصر المتصوفة بالفتك بهم، فمنهم من وافق على ذلك ومنهم من اعتذر.

وقد هاجم المؤرخون الأوروبيون المحدَثون مثل كنج King وستيفينسن Stevenson صلاح الدين لإقدامه على الفتك بهؤلاء الفرسان، دون أن يدركوا أسباب ذلك، والواقع أن دوافع صلاح الدين كانت تتمثل في الآتي:

- لم يكن هناك اعتياد تبادل عناصر الرهبان الفرسان كأسرى.
- كانت عناصرهم أشد الصليبيين فتكاً بالمسلمين.
- شاركوا في حملة إرناط (رينو دي شاتيون) على الحجاز.
- كان صلاح الدين يدرك أنه في حالة إطلاق سراحهم، سيعودون إلى قتاله مرة أخرى.

أمام تلك الدوافع كان محتماً عليه الفتك بهم.

لا نُغفل هنا ملاحظة أن أولئك المؤرخين الغربيين، كانوا – ولا يزالون – مزدوجي الرؤية، فعلى حين هاجموا صلاح الدين لفتكه بنحو (200) من أولئك الرهبان الفرسان، إلا أنهم لم يهاجموا

ريتشارد قلب الأسد عندما قام بمذبحة مروعة في تل العياضية خارج عكا، حيث أمر بذبح (2500) من أبطال المسلمين الذين دافعوا ببسالة عن تلك المدينة طوال عامين.

ألفت نظر القارئ إلى أن هذا المسلك من جانب صلاح الدين كان بمثابة الحادثة الدموية الوحيدة في تاريخه على مدى أعوام عديدة من صراعه ضد الصليبيين.

-14-

المؤرخون العراقيون المحدَثون وصلاح الدين

في رحلتي مع صلاح الدين الأيوبي التي امتدت أعواماً عديدة، تعلمت من إسهامات المؤرخين العراقيين المحدَثين، ولهم مؤلفاتهم القيمة التي سلطوا من خلالها الأضواء الكاشفة على تاريخ ذلك السلطان الذي تعد مرحلة حكمه (1171-1193م) نقطة تحول فارقة في تاريخ بلاد الشام ومصر على نحو خاص، وما جاورهما من أقاليم.

هناك عدد من أولئك المؤرخين أوجز الإشارة إليهم على النحو التالي:

- عماد الدين خليل: وهو مؤرخ ومفكر عراقي بارز حصل على الماجستير من جامعة بغداد عن عماد الدين زنكي، وقدم إلى أرض

النيل وحصل على الدكتوراه عن «الإمارات الأرتقية» تحت إشراف الأستاذ المؤرخ والمحقق د. حسن حبشي، وقد نشر عماد الدين خليل عدة مقالات وبحوث عن صلاح الدين ومعركة حطين عام 1187م.

والمؤرخ المذكور يُعد من أبرز من أنجبه العراق العزيز، وله إسهامه عن نور الدين محمود أستاذ صلاح الدين.

- محسن محمد حسين: مؤرخ عراقي بارز، درس «الجيش الأيوبي» في رسالته للدكتوراه ونشرها، وتعد من أهم إسهامات المؤرخين العراقيين، مع عدم إغفال الدور الذي قام به من قبل المؤرخ المصري الرائد نظير حسان سعداوي (1914-1968م).

- ياسين التكريتي: وهو من أبرز أبناء العراق الذين درسوا صلاح الدين الأيوبي، وقد أعد رسالته للدكتوراه عن «الأيوبيين في شمال الشام والجزيرة»، وتعد من الدراسات الممتازة التي أفدت منها في دراسة تلك المرحلة المحورية في تاريخ المسلمين في العصور الوسطى وعلاقاتهم بالغرب الأوروبي.

- ميسون ذي نون العبابجي: وهي مؤرخة جادة ومتميزة من الموصل، وحصلت على الدكتوراه في موضوع «ابن الأثير (ت 1232م) مؤرخاً للحروب الصليبية – دراسة في مصادره». وهي تعمل في مركز بحوث الموصل في جامعتها العزيزة، وقد تراسلت معي أثناء إعداد رسالتها، وقد تتلمذت على يدَيْ المؤرخ البارز جزيل عبد الجبار الجومرد.

بصفة عامة، تعد المؤرخة العراقية المذكورة من أهم مَن تخصص في الحروب الصليبية ومرحلة صلاح الدين الأيوبي، وقد

أرسلت لي رسالتها القيمة التي يتضح منها جهدها العلمي البارز وكذلك إشراف أستاذها المؤرخ القدير.

- محمد نزار الدباغ: مؤرخ عراقي متميز، أعد أطروحته للماجستير بعنوان «المشرق العربي الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير، الأحوال السياسية والعمرانية (578-581هـ / 1182-1185م)»، وقد ناقشها عام 2001م، وهي أول دراسة تتناول (4) أعوام فقط من خلال رحلة هذا الرحالة الأندلسي الفذ الذي يعد أمير الرحالة في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.

هذه مجرد لمحة عن إسهام المؤرخين العراقيين المحدثين. كما يهمني أن ألفت النظر إلى أهمية ما نشروه في مجلة «المورد» العراقية المتميزة، فهي كنز علمي حقيقي، وقد طالعت كافة أعدادها في مركز جمعة الماجد للتراث بدبي بمكتبته الضخمة العامرة.

-15-

المؤرخون الفلسطينيون المحدَثون وصلاح الدين

في رحلتي مع السلطان خالد الذكر صلاح الدين، أفدتُ من مؤلفات المؤرخين الفلسطينيين الذين قدموا إلى المكتبة العربية العديد من الإسهامات التي أثرتها، وأذكر منهم عدداً من الأمثلة:

- د. سعيد عبد الله البيشاوي: وهو رائد المدرسة التاريخية الفلسطينية، حصل على الماجستير عن «نابلس في عصر الحروب الصليبية» من جامعة الإسكندرية تحت إشراف د. محمود سعيد عمران، والدكتوراه عن «الممتلكات الكنسية في بيت المقدس»، ودرس صلاح الدين في مؤلفاته، وهو أول من سلط الأضواء على إسهامات المؤرخين الإسرائيليين في دراسة عصر الحروب الصليبية.

ـ د منى حماد: وهي مؤرخة فلسطينية قديرة تعمل أستاذاً لتاريخ العصور الوسطى بالجامعة الأردنية، وقد حصلت على الدكتوراه في موضوع «الكتابة التاريخية في عصر الحروب الصليبية، وليم الصوري وعز الدين بن الأثير، دراسة مقارنة»، تحت إشراف المؤرخ الأمريكي البارز إدوارد بيترز Edward Peters.

ـ د. عبد الرحمن المغربي: الذي تخصص في كتابة تاريخ عكا منذ الاحتلال الصليبي لها عام 1104م، إلى تحريرها على يد داوية الإسلام المماليك عام 1291م.

ـ د. فؤاد الدويكات: وهو مؤرخ فلسطيني متألق، وقد أعد رسالة الماجستير عن طبرية في عصر الحروب الصليبية، والدكتوراه عن إقليم شرقي الأردن بين عامي 1099 و1187م، وتعد دراسته الأولى من أهم ما أُلف بالعربية في مجالها، دون التقليل من شأن الدراسة الثانية.

ـ طالب الصوافي: أعد أطروحته للماجستير عن قلاع شمالي فلسطين؛ فدرسها دراسة مهمة، وتناول إسقاط الجيش الأيوبي لها في أعقاب معركة حطين الحاسمة عام 1187م.

ـ د. رياض مصطفى شاهين: الأستاذ بالجامعة الإسلامية بغزة، وقد أعد دراسة مهمة عن اليهود في عصر الحروب الصليبية، كذلك دراسة عن قلعة جزيرة فرعون ساحةً للصدام الصليبي الإسلامي.

ـ جلال حسني سلامه: وهو مؤرخ فلسطيني نابه، أعد رسالته للماجستير عن عكا خلال الحملة الصليبية الثالثة، أما الدكتوراه فكانت عن الاستيطان الصليبي في فلسطين، وقد أعدها تحت إشراف

مؤرختنا وأستاذتنا الراحلة د. علية عبد السميع الجنزوري أستاذة تاريخ العصور الوسطى بكلية البنات بجامعة عين شمس رحمها الله رحمة واسعة.

ذلك عرض لنماذج من المؤرخين الفلسطينيين الذين سلطوا ببراعة الضوء على صلاح الدين الأيوبي وتاريخه.

-16-

بين نابليون وصلاح الدين

ذات يوم، التقيت بأستاذ جامعي في مجال القانون، وقد حصل على الدكتوراه من فرنسا وتزوج بفرنسية، وتبادلنا الحديث، إلى أن وصلنا إلى نقطة مهمة تتعلق بعظماء التاريخ، وإذ بالرجل يفيض بالحماس قائلا: «نابليون يا دكتور، وهل هناك مثل نابليون؟! إنه من وضع القانون الفرنسي وصاحب المعارك شرقاً وغرباً وأشهر شخصية فرنسية سياسياً وعسكرياً».

عندما قدمت له رأيي بأن صلاح الدين الأيوبي يتفوق عليه مرات ومرات، لم يعجبه هذا القول، ورآه نتاجَ تعصبنا لتاريخنا، بل نصحني أن نوسع رؤيتنا ولا نرى في المرآة إلا أنفسنا، لأننا لذلك – على حد قوله – لن نتقدم قيد أنملة.

أسفت وحزنت على ذلك الدكتور «المتفرنس» الذي غزته فرنسا في أعز ما يملكه العالم، وهو فكره المعبر عن كينونته وهويته، وأحب أن أقدم هنا بعض الإشارات المهمة كي يدرك القارئ الفارق الشاسع بين فارس الإسلام النبيل، وفارس فرنسا المتعصب الذي صنعته الدعاية الفرنسية المدعو نابليون بونابرت، ويمكن إجمال ذلك في الآتي:

- أدخل نابليون فرنسا في حروب طاحنة فتك فيها الموت بعشرات الآلاف من أبنائها دون طائل وفي النهاية تم احتلالها، فأين العبقرية العسكرية والسياسية هنا؟!

- دخلت خيوله الأزهر الشريف، وضربت مدافعه القاهرة وثار ضده المصريون في صورة ثورة القاهرة الأولى عام 1798م، وثورة القاهرة الثانية عام 1800م.

- في يافا قام ذلك الفرنسي المتعصب بذبح (4441) فلسطيني مما دل على ما كان في قلبه من حقد أسود ضد الإسلام وأهله.

- قام بدعوة اليهود إلى إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وكان بذلك بداية مأساة ذلك القطر العربي العزيز على كل عربي ومسلم في كافة أنحاء العالم.

- تعرض نابليون لهزائم فادحة مثل معركة أبي قير البحرية عام 1798م، ومعركة ووترلو ببلجيكا عام 1815م.

هل بعد كل ذلك نردد ما تقوله أجهزة الدعاية الفرنسية، ولا نعتزّ برموزنا ؟!!.

ألفت نظر القارئ إلى أن من المؤرخين والكتاب الفرنسيين من

ألف العديد من المؤلفات عن صلاح الدين الأيوبي، وأشاد بفروسيته الحقة التي تعلمت منها أوروبا في العصور الوسطى.

في تصوري أن نابليون بونابرت هذا القائد الفرنسي لم يقدم لنا تجربة حضارية حقيقية، وانتهت حياته أسيراً ذليلاً في جزيرة سانت هيلانة، أما فارس الإسلام النبيل فإن تجربته المتجددة حضارياً خير شاهد ودليل أن المقارنة مع المغامر الفرنسي لا تقف على قدميها!!

-17-

المؤرخون الإسرائيليون وصلاح الدين

حرص المؤرخون الإسرائيليون أشد الحرص على دراسة صلاح الدين الأيوبي من خلال انتصار المسلمين التاريخي في حطين عام 1187م تحت قيادته.

كان الهدف من وراء ذلك، الإجابة عن سؤال على جانب كبير من الأهمية وهو: كيف تم طرد الصليبيين من بلاد الشام بعد أن ظلوا فيها مدة قرنين من الزمان؟ وكيف يتعلم الصهاينة من تجربة الاستعمار (أي الاستدمار) الصليبي على مدى القرنين 12، 13م؟

لذلك لم يكن غريباً أن عُقد في القدس عام 1987م مؤتمر دولي شارك فيه كبار مؤرخي العالم في مجال تاريخ الحروب الصليبية.

وقد ألقى رئيس الكيان الصهيوني كلمة في افتتاح المؤتمر، مما دل على أهميته وأهمية النتائج التي يمكن الخروج بها من حصاد المقدمة في المؤتمر المذكور.

ويعد المؤرخ الإسرائيلي يوشع براور Joshua Prawer رائد الكتابة التاريخية الإسرائيلية عن الحروب الصليبية، وقد اهتم بتكوين مجموعة من المؤرخين الإسرائيليين في المجال المذكور، ومن أمثلتهم سليفا سكين Sylvia Schein، وبينامين كيدار Benjamin Z. Kedar وغيرهما. وكان براور قد شارك في حرب السطو على فلسطين عام 1948م التي يسيمها الإسرائيليون – كذباً وافتراءً - حرب الاستقلال!! وقد أصيب خلالها، ويُعد من المؤسسيين لجامعة بئر سبع (بير شيفا).

اهتم تلميذه بنيامين كيدار بأمر معركة حطين، وكان المحرر للكتاب الذي صدر كنتاج المؤتمر، ويعد ذلك المؤرخ أهم تلاميذ براور وأغزرهم علماً كمّاً وكيفاً.

وتوهم براور أن صلاح الدين الأيوبي كان عسكرياً متوسط الكفاءة، وهو أمرٌ يدعو للدهشة أن يصدر هذا الكلام من مؤرخ بارز مثله، السؤال الآن: أين تقييمه لمعركة حطين التي لا تزال تدرس في كلية الحرب في العالم، ولا يخلو منها كتاب في المجال الحربي؟

إنه الحقد الدفين على أبطال الإسلام الذي لا يخفى على أحد، ومحاولة اغتيال الرموز حتى لا يكونوا قدوة لأبنائه في الحاضر والمستقبل.

وبراور يا عزيزي القارئ، مؤرخ متعصب لصهيونته، لاشك في ذلك، وقد عاصر حروب العرب مع إسرائيل على مدى الأعوام من 1948م إلى 1956م إلى 1967م إلى 1973م، وأتصور أن رأيه في حرب 1973م الخالدة سيكون كما ذكر عن صلاح الدين من قبل، وبالتالي سيتصور أن سعد الدين الشاذلي، وأحمد إسماعيل، وغيرهما من أبطال تلك الحرب، متوسطو الكفاءة، على الرغم من أن جنود إسرائيل قبّلوا أقدام الجنود المصريين طلباً للحياة والنجاة خلالها!!

أيّاً كان الأمر، رحل براور عن دنيانا في 30 أبريل عام 1990م تاركاً وراءه مجموعة من المؤرخين يواصلون دراسة الحروب الصليبية وإسهامات ذلك القائد العسكري الذي تصوره متوسط الكفاءة!! وبداهةً، لو كان فعلاً كذلك، لما اهتم أولئك المؤرخون بدراسته وعقد مؤتمرات علمية لمناقشات إنجازات المسلمين تحت قيادته وهزيمتهم للصليبيين.

-18-

حياة صلاح الدين القلقة

خلال رحلتي مع صلاح الدين، أدركت من خلال فراستي العلمية، أن هناك قلقاً شديداً كان يلازمه حتى عام 1187م، هل يعرف القارئ ذلك القلق وأسبابه؟

لقد عاصر صلاح الدين عهد نور الدين محمود، وهو بالفعل أستاذه سياسياً وحربياً، وكان الأخير يتمنى أن يدخل بيت المقدس فاتحاً، ولذلك طلب من الصناع المهرة في دولته أن يصنعوا له منبراً من الخشب المعشق حتى لا يدخل في صنعه أي مسمار!! وبالفعل أنجزوه على أن يوضع في المسجد الأقصى بعد تحريره، ومات الرجل عام 1174م دون أن يحقق ذلك الحلم ويضع ذلك المنبر في المسجد المبارك بعد تحريره.

كان صلاح الدين يخشى أن يرحل من هذه الدنيا دون أن يحقق الحلم الذي حلم به أستاذه ويضع المنبر في المسجد المذكور، ولذلك كان القلق يتملكه من أن يعجز عن تحرير بيت المقدس الذي كان ينادي كل مسلم مخلص حينذاك بأن يحرره من دنس أولئك الغزاة الصليبيين.

وفي يوم 2 أكتوبر عام 1187م، حقق صلاح الدين ومعه المسلمون، ذلك الهدف الأسمى والأنبل في تاريخ حركة الجهاد الإسلامي عصر الحروب الصليبية؛ إذ فُتحت المدينة المقدسة عقب انتصار حطّين الحاسم، وتم تطهير المسجد الأقصى وقبة الصخرة وتحقق الحلم بعد طول انتظار وعظيم انتصار!!

هكذا، ندرك أن صناع التاريخ يدفعون الثمن من أعصابهم من أجل تحقيق الأهداف الكبرى لأمتهم.

يبقى أن أذكر هنا أن ذلك المنبر الرائع تم إحراقه عام 1969م من خلال وحشية وتعصب الصهاينة، وهذا دليل دامغ على وحشية الاحتلال الإسرائيلي الذي تسبب في القضاء على تحفة فنية إسلامية لا نظير لها!

في المقابل، قام الفلسطينيون بإعداد منبر حديث بنفس المواصفات، ووضعوه في المسجد الأقصى بدل ذلك المنبر الذي احترق بنيران التعصب المقيت!!

كان صلاح الدين يعيش في ظل توتر دائم، وإن محاولة استعراض سريع لأعدائه ستوضح لنا كثرتهم بصورة تدعونا للتأمل بعمق، وهم كالتالي:

- الفاطميون وذيولهم حتى بعد إسقاط دولتهم عام 1171م.
- الزنكيون في بلاد الشام والجزيرة الفراتية.
- عناصر الإسماعيلية النزارية خاصةً الفداوية.
- الصليبيون المحليون في بلاد الشام.
- القوى الصليبية القادمة من الغرب في صورة جيوش ألمانيا وإنجلترا وفرنسا.

لا ننسى محاولات الاغتيال التي تعرض لها في أعوام 1174م، 1175م، 1176م، وقد جعلته حذراً متحفزاً لمواجهة أي مكروه في المستقبل. لا نغفل كذلك التوتر النفسي والعصبي خاصة خلال المعارك كما حدث بالنسبة لمعركة عكا (1189- 1191م) في ظروف الحملة الصليبية الثالثة (1189- 1192م) وهي أطول معارك عصر الحروب الصليبية، وما شهدته من دماء، ودمار، وحرائق.

هناك أيضا القلق من المرض؛ إذ أصيب عدة مرات، ولم يكن مريضاً يمتثل لتعليمات الأطباء، مما زاد من عدم تحسن حالته المرضية، نظراً لانهماكه في أمور الجهاد ضد الصليبيين.

إضافةً إلى ذلك، هناك التوتر خشية مؤامرات الأعداء، وقد يكونون من المقربين في ذلك العصر، كان هناك خشية القتل بالسموم سواء النباتية، أو الحيوانية، أو المعدنية، لذلك لا تتعجب مما ألفه الأطباء المعاصرون عن السموم والتحرز من الأدوية القتالة.

لا شك أن حصاد كافة هذه الأمور، جعل السلطان يعيش في ظل توتر دائم، وقلق مستمر، فلم يهنأ بحياة طبيعية مثل غيره من عامة المسلمين، ولم يعرف الاستقرار بالصورة التي نألفها في زماننا هذا.

كان لذلك أثره العميق على جهازه العصبي، وضعف قدرته على مواجهة الأمراض، لذلك نجده توفي في 4 مارس 1193م عن عمر بلغ (55) عاماً فقط، حقيقة أن الأعمار بيد الله عز وجل خالق كل شيء، إلا أن الظروف والأحداث التي عاصرها، كان لها أثرها الحاسم في الإجهاز عليه، فكانت الصحة بالفعل هي الثمن.

-19-

القلعة في تاريخ صلاح الدين

في تقديري أن فهم شخصية صلاح الدين الأيوبي منذ ميلاده إلى وفاته يتمثل – جزئياً – في كلمة «القلعة»، نعم القلعة!! لقد عاش طفولته في قلعة بعلبك في سهل البقاع، ومن خلال تلك الأعوام الباكرة من حياته، تعلم الحذر والاحتراس والتوجس من الأعداء، وصار بالغريزة أكثر استعداداً لمواجهة الخطر المحتمل، ومن المعروف من خلال نظريات علم التربية أن سنوات الطفولة تترك أثرها العميق في الشخصية.

من ناحية أخرى، نجد أن تاريخ ذلك القائد لا يُكتب إلا من خلال القلاع، فقد حرص على إقامة قلعة جزيرة فرعون Ile de Gray

عند رأس خليج العقبة، كذلك أقام قلعة الجندي في سيناء، وبالتالي يعد أول من أدرك أهمية تحصين وسط سيناء من أجل دعم الخطوط الخلفية عندما يقوم بعملياته العسكرية في فلسطين.

كما أقام قلعته الشهيرة فوق جبل المقطم التي تسمى قلعة الجبل، والتي اكتمل بناؤها في عهد السلطان الكامل محمد بن العادل شقيق صلاح الدين.

من ناحية أخرى، في أعقاب حطين قامت موجة كاسحة لإسقاط القلاع الصليبية، فحوصرت وسقطت، ومنها من استسلم، هكذا ندرك أنه تربى في حضن العمارة الحربية، فهو فارس منذ نعومة أظافره، وإذا ما أدركنا أنه عندما بلغ السادسة من عمره عاش فرحة المسلمين بفتح إمارة «الرُّها» الصليبية، بقيادة أتابك الموصل عماد الدين زنكي؛ أدركنا كم كانت مرحلة الطفولة مؤثرة بالنسبة لتشكيل عقلية ذلك الفارس الذي سينهض بقيادة المسلمين لمواجهة الغزو الصليبي.

إذا كانت بذرة الحذر قد غُرست في تلك المرحلة المبكرة، فإن الحذر ظل ملازماً له حتى صار مقوياً للحس الأمني من خلال عمله قائدا للشرطة في عهد أستاذه نور الدين محمود (1146-1174م).

ولقد اكتسب ذلك الفارس مهاراتٍ كبرى، من خلال اتصاله بأسد الدين شيركوه، الذي يوصف بحق بأنه فارس حروب الصحراء المتميز في اجتياز المناطق من بادية الشام إلى شبه جزيرة سيناء، وصولاً إلى صحراء مصر الشرقية والقاهرة.

هكذا ندرك أنه إذا كانت مرحلة الطفولة قد شاركت بشكل أساسي في تكوين شخصيته، فإن توالي الخبرات الحياتية، دعمته وجعلت

منه فارساً في خضم الأحداث يصارعها وتصارعه، وهو أمر يؤكد لنا أنه لا يوجد عامل واحد فقط مؤثر في تكوينه، بل عدة عوامل أولها زمنياً مرحلة الطفولة.

-20-

العودة إلى عصر صلاح الدين

سألني أحد تلاميذي سؤالاً محيراً ورائعاً: هل تحب أن تعيش في عصر صلاح الدين الأيوبي؟!!

بالطبع التاريخ لا يعود إلى الوراء، ولا نغفل استحالة استرداد أحداث الماضي، وكل مؤرخٍ ابنُ عصره، وعندما أطالع مصادر تاريخ العصر الأيوبي، أستشعر أنني أعيش العصر من خلال استرداد الماضي عقلياً، وبالتالي لا أحتاج لافتراض أن أعيش في عصر ذلك الفارس.

الناحية الأخرى، لا يستطيع المؤرخ الاستغناء عن إنجازات عصره الخاصة بالطفرة المعرفية، وفي عصر صلاح الدين لم

يكن هناك هواتف نقالة، ولا أقمار صناعية ولا شبكة انترنت، مع ملاحظة أن ذلك له جانبان: إيجابي وسلبي، إيجابي لأن الزمن تم اختصاره والمكان تم تجاوزه، وصارت «الفيمتو ثانية» هي الحاسمة وهي: رقم واحد أمامه (15) صفراً 1.000.000,000.000.000 من الثانية!!

أما الجانب السلبي فيتمثل في أن ذلك كله إنجاز غربي، وكلها أدوات هيمنة الغرب علينا، ومن الأمور التي تدعو للتأمل أن أدوات الغرب في التعامل مع صلاح الدين كانت السيف، والرمح، والدرع، والأبراج الخشبية، والنيران، أما في زماننا فإن أسلحته أكبر من أن تحصى، فهناك شبكة الأنترنت والمواقع الإباحية، والدعوة للشذوذ، ناهيك عن مؤامرة الهندسة الوراثية، على نحو أدى بنا للدخول إلى مرحلة انتحار العلم!!

الفارق التكنولوجي والمعرفي ضخم بين عصر صلاح الدين وعصرنا الحالي، والمؤرخ ابن عصره حتى في حالة كون هذا العصر مظهراً حديثاً للغاية للحروب الصليبية!

خلاصة القول، أنني ابن عصري، وأعيش عصر صلاح الدين من خلال مطالعة المصادر التاريخية التي ألفها مؤرخون معاصرون لذلك السلطان خالد الذكر.

-21-

القيمة الكبرى لصلاح الدين

القيمة الكبرى لصلاح الدين في تقديري، أنه أثبت قدرة الشرق في الانتصار على الغرب ومشروعه الاستعماري الضخم في العصور الوسطى في صورة الحروب الصليبية، وقد كان ذلك الانتصار مزدوجاً، أي عسكرياً وحضارياً، وهنا تكمن أهمية التاريخ حيث كان الشرق منبع الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، وفيه قامت الحضارات الكبرى في مصر، والعراق (بلاد الرافدين)، وفي الصين، وفي الهند، في وقت كان الغرب فيه تائهاً في بيداء التخلف.

هكذا أكد القائد البارز، ومعه المسلمون، الثقة في الشرق؛ إذا ما

أراد فعل، ولا يوجد ما يعيق طريقه؛ لأنه إذا وجدت الإرادة وُجد الطريق.

ثم عجز الغرب عن إيجاد مثيلٍ لذلك الفارس الذي أنجبه الشرق، بل بلغ انبهاره به تكوين أسطورة له، عاشت في العقل الجمعي الغربي، كل ذلك أكد لنا أن الشرق لا ينقصه شيء كي ينهض حتى بعد عقود طويلة من الاستعمار (أي الاستدمار) الغربي.

في كلمات موجزة، قيمة صلاح الدين التاريخية ليست فيه كشخص، بل في الشرق الذي أنجبه، وتحدى الغرب وأثبت قدرته على أن يصنع التاريخ الوثاب وأن ينهض، وهذا هو الدرس الذي يمكن أن نحصل عليه من دراسة تاريخ ذلك الفارس وذلك الشرق الذي خرج منه.

علينا نحن الآن استلهام الماضي دون الشعور أبداً بالدونيّة، فنحن أنداد حقيقيون للغرب، ويجب أن ننظر إلى الماضي بفخر لا بألم، من أجل تحقيق إنجازات بارزة كتلك التي تحققت في عصر صلاح الدين.

كما أنه يتوجب علينا التوأمة بين الأصالة والمعاصرة، حتى نلحق بالركب العالمي ويكون لنا موقع حقيقي تحت الشمس.

-22-

حيوانات وطيور في سيرة صلاح الدين

مجد صلاح الدين الأيوبي شاركت فيه حيوانات وطيور ولم يكن صناعته شخصياً، وكذلك البشر الذين آمنوا به كقائد لمرحلة حاسمة في تاريخ الصراع بين الشرق والغرب، وهنا لابد لنا من الإشارة إلى الخيول، والجمال، والحمام، والنسور.

احتلت الخيول مكانة بارزة في ذلك العصر، حيث عُدت الأداة الأساسية لسلاح الفرسان، وامتلك صلاح الدين حصاناً عربياً أصيلاً، وقد اهتم المسلمون عموماً بالخيل، وألفوا مؤلفات في أنسابها، بل في علاجها فيما عُرف بكتب البيطرة.

خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة (1189- 1192م) اشترى

صلاح الدين (13,000) من الخيول، كذلك يقال أن ريتشارد قلب الأسد أثناء معركة أرسوف يقال إن حصانه قُتل؛ فأمر صلاح الدين بإرسال حصانين آخرين له، وهو ما يدل على نبل أخلاقه التي شهد له بها القاصي والداني.

لا نغفل هنا الإشارة أن جيش صلاح الدين، ضم فارساً بارزاً هو قايماز النجمي، الذي لم يستطع أي فارس من فرسان الصليبيين إسقاطه من على صهوة حصانه، وقد استشهد ذلك الفارس في 7 سبتمبر عام 1191م؛ أي في يوم معركة أرسوف.

أما الجمال فكانت من وسائل نقل أمتعة الجيش الأيوبي، ولا نغفل هنا أن الجمل كان سفينة الصحراء، وله صفاته العجيبة؛ فهو يتحمل العطش لأيام عديدة، كما أنه يسترشد بالنجوم ليلاً، ويميز النباتات المفيدة عن السامة من خلال حاسة الشم لديه، كما أنه لا ينسى الإساءة، ولذلك قالت العرب: أحقد من جمل.

هكذا، أكدت لنا الخيول والجمال أن للتاريخ بالفعل أنياباً وأظافر كما وصفه الكاتب الأشهر أنيس منصو، حيث جعل هذه العبارة عنواناً لأحد كتبه الماتعة.

أما الحمام؛ فكان له دوره من خلال إيصال الرسائل، وقد اشتهر في ذلك العصر الحمام الزاجل أو الهوادي، وكان نور الدين محمود قد اهتم به اهتماماً خاصاً، وورث صلاح الدين عن أستاذه الاهتمام به أيضاً، وكان إرسال الرسائل يتطلب أن يكون الجو صحواً بلا سحب أو غيوم، وقد تناول محيي الدين عبد الظاهر (ت 1292م) الحمام الزاجل في كتابه «التمائم في الحمائم»، كذلك تعرَّض له

القلقشندي (ت 1418م) في كتابه الموسوعي «صبح الأعشى في صناعة الإنشا».

أما النسور، فنجد أنها طيور ذات خصوصية خاصة، فهي قد جعلت من قمم الجبال سكناً لها، وقد أعجب صلاح الدين بها واتخذ النسر الأحمر شعاراً له، ونجد أن النسر قد نقش على جدران قلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين فوق جبل المقطم.

ويورد لنا الدميري (ت 1405م) في كتابه الموسوعي «حياة الحيوان الكبرى» إشارة فريدة عن النسور تفيد بأن أنثى النسر إذا ما ماتت؛ حزن عليها الذكر حزنا شديدا وامتنع عن الطعام إلى أن يموت، وهذا الوفاء يندر أن يوجد في عالم البشر!

ذلك عرض موجز يؤكد لنا أن التاريخ ليس تاريخ بشر فقط، بل بشر، وحيوانات، وطيور بل وحشرات أيضاً، كما في حالة دودة القز، والنحل، والبعوض.

-23-

صلاح الدين وأقباط مصر

الأقباط لهم قصة مع السلطان صلاح الدين، فقد أحبوا ذلك السلطان، وشاركوا في الجهاز الإداري لدولته لاسيما في الأمور المالية، ووضعوا صورته في الكنائس والأديرة تقديراً له، كما أنهم رفضوا الحج إلى بيت المقدس طالما أنه في قبضة الغازي الصليبي.

من ناحية أخرى أعطى لهم صلاح الدين ديراً في المدينة المقدسة، عُرف بدير السلطان، ولا يزال يعد من أملاك الكنيسة القبطية المصرية، ويمثل دليلاً واضحاً على تسامح ذلك الحاكم المسلم.

تجدر الإشارة، إلى أن أقباط مصر كانوا مدركين لحقيقة الحركة الصليبية وتلاعبها، وأنها لم تأت إلى المنطقة لحماية المسيحيين الشرقيين، بل من أجل نهب مواردها تحت شعار الصليب.

ويحاول بعض المستشرقين القول بوجود اضطهاد لعناصر الأقباط في مصر خلال العصر الأيوبي، وهو أمر مغلوط تماماً؛ لأنهم وقفوا بجوار أشقائهم المسلمين دفاعاً عن الوطن الواحد، ولم تصب كنائسهم وأديرتهم بسوء على عكس ما حدث في العصر الفاطمي خاصة خلال عصر الخليفة المضطرب عقلياً الحاكم بأمر الله (966 - 1021م) الذي أمر بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس على نحو أثار مشاعر المسيحيين إلى درجة كبيرة.

من المهم ذكره، أن أقباط مصر طوال تاريخهم وقفوا بجوار أشقائهم المسلمين من أجل الوطن الواحد المفدى، وفي مجال تاريخ الحروب الصليبية، وجدنا كوكبة من مؤرخيهم المحدثين يشيدون بصلاح الدين الأيوبي وجهاده ضد الغزاة، ويكفي إيراد عدد منهم مثل د. إسحاق عبيد، ود. فايز نجيب إسكندر، ود. جوزيف نسيم يوسف، ود. عادل مرقص، وجميعهم قدَّروا ذلك السلطان وكشفوا من خلال كتاباتهم عن حقيقة الحركة الصليبية باعتبارها من الحركات التاريخية المتعصبة في عصرنا الحديث – كامتداد لمرحلة العصور الوسطى.

وفي عصرنا الحالي، شارك الأقباط إخوانهم المسلمين في عبور قناة السويس، والدفاع عن الوطن المفدى في 6 أكتوبر 1973م، مما دل على أن عنصري الأمة هم في الواقع عنصر واحد لا يتجزأ أبداً.

-24-

خلود ذكر صلاح الدين

الموت عندي أحياناً هو منتهى الحياة.. وأقصى حدود الحياة!! فقد مات صلاح الدين الأيوبي في 4 مارس 1193م، بعد أن عاش (55) عاماً، لكنه عاش من بعد ذلك تسعة قرون!!

من خلال عطر ذلك التاريخ الفَوَّاح بالمجد والشرف والسؤدد، لم يكن موته إلا رحيلاً جسدياً كي تدب الحياة، بل منتهى الحياة في تاريخه.. أتصور ذلك حقاً وفعلاً.

ليس كل البشر يحدث معهم ذلك؛ فالغالبية الساحقة يرحلون ولا يتركون إلا حصاداً هزيلاً لأقربائهم، أما من عمل من أجل أمته وتسامح مع الأعداء دونما تفريط، فهو بالفعل القليل القليل.

هكذا يقدم لنا صلاح الدين الدروس تلو الأخرى من بعد رحيله مريضاً فقيراً، لا يملك حق كفنه، و هل هناك أبلغ من ذلك دليلاً على أنه امتلك الدنيا مجداً وفخراً لكنها أبداً لم تتملكه؟! وأدرك واقعياً أن الغنى في الاستغناء، كما قال فيما بعد أبو الحسن الشاذلي (ت 1258م) أي الاستغناء بالحق عن الخلق.

في مقدورنا القول بكل موضوعية، إن ذلك السلطان توفي في اليوم المذكور، ثم من بعد ذلك عاش أسطورةً في عقول أعدائه، وظل يمثل رمزاً لا يمكن الفكاك منه.

أذكر القارئ بأن القائد البريطاني اللينبيَ Allenby (1861-1936م) عندما دخل القدس عام 1920م قال: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»، كما أن القائد الفرنسي جورو (1867- 1946م) عندما انتصر على ابن سوريا البار وشهيدها البطل الخالد يوسف العظمة (1884- 1920م) قال عبارته الشهيرة في التاريخ: «Saldin Voila Nous revenus»، أي: لقد عدنا يا صلاح الدين!! وفي مثل تلك العبارة وغيرها، الدليل الحي على أن ذلك البطل المغوار كان يؤرق مضاجع الغرب حتى وهو في قبره، ولذلك حرصوا على إقامة وطن قومي لليهود على حساب عرب فلسطين أصحابها الأصليين الذين تجذروا فيها منذ مئات السنين، وجلبوا لها شتات يهود العالم من أجل صنع دويلة إسرائيل.

-25-

في انتظار صلاح الدين آخر

أثناء زيارتي لدمشق، كثيراً ما ذهبت إلى ضريح ذلك السلطان؛ كي أستلهم الأفكار عنه وعن دوره القيادي في مواجهة الصليبيين.

ذات مرة، جلس بجواري شاب سوري، ومن خلال الحديث معه؛ اتضح لي أنه من حلب وأنه ينتسب إلى عائلة الشاعر السوري الكبير/ عمر أبو ريشة، وأثناء الحديث قال: نحن الآن في انتظار صلاح الدين الجديد.

وبعد أن انتهت الجلسة، عدت سائراً إلى الفندق الذي نزلت فيه، وسرت في سوق الحميدية، والأفكار تموج في عقلي، وتأملت هذه العبارة التي ذكرها ذلك الشاب: نحن الآن في انتظار صلاح الدين الجديد!

تأملتُ ما قاله، واتضح لي أننا – وللأسف الشديد وللحزن الأشد – أمة تعشق الانتظار، انتظار ما لن يجيء!! فما الذي فعلناه نحن من أجل ظهور قائد جديد على شاكلة صلاح الدين؟ لم نأخذ بالأسباب التي تدعو إلى التقدم، وانتظرنا البطل المخلص!! إذاً، فمثلنا مثل مسافر ذهب إلى المطار كي يستقل طائرته على الرغم من أنه لم يمتلك أصلاً تذكرة للسفر!!

هل تم إعداد الأمة إعداداً كاملاً شاملاً من أجل إحداث مشروع نهضة يأخذ بالأسباب ويجمع بين الأصالة والمعاصرة؟ لا، لم نفعل!! هل أدركنا احتياجات عصرنا وتناقشنا مع الدول الأخرى، أم ظللنا نعيش في الماضي ولم نغادره؟

وعندما يقول لي شاب في مقتبل العمر: نحن في انتظار صلاح الدين جديد، فإن ذلك يعني فكرة البطل المخلّص الذي يستطيع بمفرده أن يفعل ما يعجز عنه الآخرون، وليس هكذا يُصنع التاريخ في زماننا هذا!!

ألفت نظر القارئ إلى أننا في حالة الافتراض جدلاً، بعودة صلاح الدين إلى عصرنا الذي نحياه، يجب أن نتجه إلى مشروع يجمع بين الأصالة والمعاصرة ويسعى إلى محو الأمية في اللغة، كذلك الأمية الرقمية، ويدعم قيمة الإنسان وحقوقه، ويتوجه نحو تقليل الفوارق بين الطبقات وإشاعة العدل الاجتماعي، ومنافسة الأعداء في مشاريع البحث العلمي، لا أن نجلس انتظاراً لما سيأتي به الزمن القادم.

نحن لا نعرف أصلاً قيمة الوقت الذي هو أثمن ما في الحياة، كما أننا لا نتصور أن الأمة كي تنهض لا يكفيها قائد واحد مخلص، بل كل فرد فيها ينبغي أن يكون هو القائد المخلص من خلال دوره.

لا أعرف مصير هذا الشاب؛ هل لا يزال حياً؟ هل قتل؟ هل تم تهجيره من سوريا الحزينة التي تعيش صفحة من أحلك صفحات تاريخها العابر للقرون؟ حيث شهدت حضارة من أقدم الحضارات التي عرفها التاريخ.

كل ما أتمناه أن تستقر الأمور فيها وأعود إلى هناك كي أجدد الذكريات، وكلي أمل أخضر وثاب أن تعود أجمل مما كانت عليه، وهو ما سيحدث بإذن لله تعالى؛ لأن سوريا العزيزة كثيراً ما واجهت نكبات وكوارث وعادت مرة أخرى كالشابة الجميلة التي لا تعرف الهرم أبداً.

خلاصة القول وصفوته، أن الانتظار دون عمل، لا جدوى منه، ولا بد من التعامل مع وسائل العصر حتى نعيشه، لا أن نفر إلى الماضي كنوع من النوستالجيا (الحنين إلى الماضي على نحو مرَضي)؛ لأن ذلك لن يفيد، بل سيهدر القدرات على نحو يؤدي إلى أوخم العواقب.

-26-

صلاح الدين بين عظماء التاريخ

ذات يوم كنت في مكتبة البنين بجامعة الشارقة، أقلب الكتب واحداً بعد آخر، وإذا بكتاب بالإنجليزية يقع في يدي عن القيادة وأعظم القادة في التاريخ.

كان منطقياً البحث عن صلاح الدين فيه، فإذا بالمؤلف -وهو من أهل الغرب- يجعل أعظم أولئك القادة من الغربيين ولا يذكر قائداً مسلماً واحداً!! أدركت من فوري أن المؤلف يعبر بجلاء عن المركزية الغربية التي لا ترى في المرآة سوى نفسها والتي لا تعترف بالآخر للأسف الشديد.

من المفترض أن المؤلف يبحث في التاريخ الإنساني عن القادة

الكبار الذين قادوا شعوبهم نحو تحقيق آمالهم وبذلوا الغالي والنفيس، بل بذلوا صحتهم وأعمارهم من أجل ذلك!! إلا أنه على مدى كتابه لم يجد قادة عظاماً إلا لدى الغرب، ذلك العبقري الذي لا يفرز إلا العباقرة!! ويمتلك وحده جينات العبقرية دون سواه!!

وتساءلت في نفسي: كيف حال الشاب العربي المسلم أو المسيحي عندما يطالع هذا الكتاب ولا يجد سطراً واحداً عن كبار القادة الذين عرفتهم منطقتنا العربية في العصور الوسطى، مثل خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، ومحمد الفاتح العثماني، وغيرهم كثيرون؟! من المفترض أن الشك سيساوره في قيمة أولئك القادة، وعندئذ سيتجه إلى الغرب كي يدرك أن أبناءه هم القادة العظام الحقيقيون، هكذا، علينا ألا نفتقد الثقة في أنفسنا، إذ ظهر من بين صفوفنا كبار القادة الذين أضاءوا مشعل المجد، واعترف بهم كبار المستشرقين، وعندما نؤلف مؤلفاتنا لا نكرر خطأ ذلك الكاتب الغربي الذي تصور أنه يعيش بمفرده في هذا العالم، فألغى كبار القادة من غير أبناء موطنه.

عذراً يا صلاح الدين، فهناك من أبناء الغرب من لا يرى إلا صورته في المرآة، ويتوهم أن إقصاء الآخر يمكن أن يكون فلسفة حياة!!

-27-

كتبٌ عن صلاح الدين

خلال رحلتي الممتدة عن صلاح الدين الأيوبي، طالعت العديد من المؤلفات في مكتبات مختلفة، فهناك الكتاب الصغير والكتاب الآخر الضخم، والذي ألفه المؤلف على نحو متعجل، والذي ألف بعد تمهل وإعداد وتدبر.

من خلال خبرتي مع عالم الكتب والمكتبات لاحظت ضرورة عدم الاستخفاف بالكتاب الصغير، وعدم الانخداع بالكتاب الضخم، فالأهمية دوماً تكون في المحتوى بغض النظر عن الحجم.

ويكفي أن أقدم للقراء مثالاً واحداً في صورة كتاب ألفه الأستاذ الدكتور/ إبراهيم طرخان (1985م) وهو أستاذ تاريخ العصور

الوسطى بكلية الآداب – جامعة القاهرة، عنوان كتابه: «النـاصر صلاح الدين وتحرير القدس»، وقد صدر ضمن سلسلة المكتبة الثقافية بعد ستة أشهر فقط من هزيمة يونيو 1967م، وهو كتاب من القطع الصغير، وعلى الرغم من ذلك يحوي أهمية خاصة من خلال قدرة مؤلفه على تقديم عرض مختصر ومركز لدور صلاح الدين في قيادة المسلمين، حتى تم تحرير بيت المقدس في 2 أكتوبر 1187م بعد أن ظلت في الأسر الصليبي الغاشم والبغيض منذ يوم 15 يوليو من العام المذكور.

طالعَ المؤلف العديدَ من المصادر التاريخية، وأشار إليها في هوامش الصفحات، وتمكن أن يقدم عرضاً يفيد القارئ الحريص على أن يقرأ من التاريخ ما يضمد جراحه بعد كارثة يونيو 1967م السالفة الذكر.

من خلال هذا الكتاب، تأكدت لنا قدرة ذلك المؤرخ المصري على المشاركة في الناحية الثقافية؛ إذ عرفنا عنه تأليفه مؤلفات أكاديمية رصينة مثل: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، الذي أصدره بالقاهرة عام 1968م.

أما أضخم كتاب أُلف عن صلاح الدين الأيوبي، فهو ما ألفه الكاتب اللبناني قدري قلعجي تحت عنوان: «صلاح الدين الأيوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر»، وقد بلغت صفحاته (662) صفحة، والمؤلف ليس من المؤرخين الأكاديميين، إلا أن كتابه احتوى على مادة غزيرة غنية بالتفاصيل، إلا أن المأخذ الرئيسي الذي يؤخذ على الكتاب أن مؤلفه

سار بالأحداث حتى طرد الصليبيين من عكا عام 1291م على أيدي المماليك بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون، وكنت أتصور أن يصل إلى وفاة صلاح الدين في 4 مارس 1193م ويقيّم دوره في الجهاد ضد الصليبيين.

مع ذلك، من الإنصاف القول إن الكتاب المذكور يمثل إسهاماً مهماً من أجل تسليط الأضواء على صلاح الدين بمثل هذه التفاصيل الضافية، إلا أنه لا يُعد عملاً أكاديمياً، بل هو عمل ثقافي له شأنه الذي لا ينكر، وبالتالي أفدت منه شخصياً في إعداد مؤلفاتي عن ذلك القائد البارز في عصر الحروب الصليبية.

-28-

شعراء عصر صلاح الدين وكتّابه

أعدَّ الأديب والمؤرخ المصري الأستاذ الدكتور/ أحمد أحمد بدوي، دراسة على جانب كبير من الأهمية تحت عنوان: «صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه»، وقد أصدره ضمن سلسلة «المكتبة الثقافية»، وصدر بالقاهرة عام 1960م.

العجيب في الأمر أن الكتاب المذكور الصغير الحجم، نحتاج إلى الإفادة منه حتى بعد (45) عاماً من صدوره، ونعرف عن مؤلفه أنه قد وُلد في طنطا عام 1906م والتحق فيما بعد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وحصل على الماجستير والدكتوراه وصار أستاذاً جامعياً بها، وقد أصدر العديد من المؤلفات نذكر منها:

- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة 1955م.

- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة 1965م.

- أسامة بن منقذ، ط. القاهرة.

- البديع في الشعر لأسامة بن منقذة، ط. القاهرة.

تلك المؤلفات هي جزء من إصدارات عديدة أكدت لنا غزارة إنتاج ذلك الباحث القدير الذي أدركته المنية عام 1964م.

من أهم ما ورد في كتاب «صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتّابه»، إشارته إلى أن (50) شاعراً مدحوا ذلك الفارس البارز عصر الحروب الصليبية، وأنهم تباروا في نظم القصائد وإلقائها عقب معركة حطين في 4 يوليو 1187م، وهي عرفت بالحطينيات، وكذلك القدسيات وهي التي ألقيت عقب فتح بيت المقدس في 2 أكتوبر 1187م، وبالتالي كان لصلاح الدين دوره في أن حرك قرائح الشعراء بعمق، ولذلك نظموا مئات القصائد التي امتدحت الجهاد وقائده، وكانت عاملاً مهماً من أجل إثارة الوعي بالجهاد في ذلك العصر.

كذلك كشف لنا ذلك الأديب والمؤرخ عن الحس الأدبي لصلاح الدين، وقرر أنه كان معجباً بأبيات مثل:

وزارني طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا

فكدت أهتف مِن حولي به فرحاً
وكاد يهتك ستَر الحب بي شغفا

ثم انتبهت وآمالي تخيل لي

نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

من الملاحظ أن د. أحمد أحمد بدوي، فصَّل أمر أولئك الشعراء الذين عاصروا صلاح الدين الأيوبي من خلال كتابه: «الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام»، ومرة أخرى هذا الكتاب القيم الذي أصدره مؤلفه عام 1955م، نحن الآن نجد فيه مادة علمية مهمة عن ذلك العصر بعد (61) عاماً من صدوره، مما أكد على حقيقة مفادها أن الزمن خير برهان وشاهد على جودة العمل العلمي.

-29-

ببليوغرافيا صلاح الدين

عندما أصدرت كتابي بعنوان: «صلاح الدين الأيوبي: دليل ببليوغرافي» عام 2014م في رام الله بفلسطين العزيزة؛ حاولت من خلاله تقديم إشارات لمئات المؤلفات التي تم إعدادها باللغة العربية وكذلك باللغات الأجنبية عن ذلك القائد الفذ في عصر الحروب الصليبية.

لقد تأكد لي أنه من العسير للغاية إعداد كتاب شامل عن المؤلفات التي صدرت عن صلاح الدين، نظراً لكثرتها وتنوعها، وصدور العديد من المؤلفات في مختلف عواصم العالم بمختلف اللغات.

بالفعل كان عملاً فردياً، وقد طالبت في ثناياه بضرورة إقامة

مركز بحثي عن تاريخ الحروب الصليبية، يتكفل من خلاله مجموعة من الباحثين بإعداد مثل هذه الدراسة الببليوغرافية الشاملة.

واقع الأمر أننا في العالم العربي نعاني من غياب ثقافة «فريق العمل»، بل أضيف، أننا نعاني من مرض الفردية؛ إذ كلٌّ يريد أن يكون هو رئيس العمل، وليس بهذا تتم دراسة التاريخ! وأذكر القارئ العزيز بكتاب صغير قيم من إعداد الصديق الأستاذ الدكتور/ خالد حربي بجامعة الإسكندرية وعنوانه: «فريق العمل ودوره في الحضارة الإسلامية»، وفيه أثبت لنا أن إنجازات تلك الحضارة التي علَّمت العالم في العصور الوسطى، تأتت من خلال فريق عمل متناغم له هدف محدد على المدى القريب والبعيد، ولذلك كانت هناك الإنجازات العظيمة التي نفاخر بها حتى يومنا هذا.

أتذكر الآن، المؤرخ الراحل د. حسين مؤنس (ت 1996م) في مقدمة كتابه «أطلس التاريخ الإسلامي»، حيث أشار إلى عجزه عن إعداد فريق عمل لإعداد هذا الكتاب، ولذلك اضطر اضطراراً إلى إصداره من خلال المجهود الفردي على الرغم من افتقاده البصر في إحدى عينيه، حيث بذل أقصى ما يستطيع من جهد في سبيل إعداده على النحو الممتاز الذي صدر به.

مرة أخرى، بدون فريق عمل متناغم؛ لن نستطيع إعداد دراسة ببليوغرافية شاملة عن صلاح الدين الأيوبي، على الأقل من خلال المراجع العربية والمعرَّبة في وطننا العربي العزيز.

-30-

بين صلاح الدين ونور الدين محمود

تساءلت في نفسي: «هل هناك إمكانية عقد مقارنة بين صلاح الدين الأيوبي ونور الدين محمود؟».

في واقع الأمر، ليس المقصود من مثل تلك المقارنة، توضيح أيهما أفضل من الآخر؛ إذ أن كافة الإنجازات التي حققها المسلمون تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي، يقف وراءها نور الدين محمود، ذلك السياسي القدير والعسكري الخبير والدبلوماسي المتميز الذي اكتشف صلاحَ الدين في الأصل، وتمكن من أن ينقل له خبرته، ولا يمكن أن ننظر لصلاح الدين إلا على أنه غرس أستاذه الذي كان خبيراً بأقدار الرجال وتخيُّر الرجل المناسب للموقف التاريخي المناسب.

من ناحية أخرى، علينا ملاحظة أن المؤرخين المحدَثين الذين

استهوتهم العمليات العسكرية، نظروا إلى إنجازات المسلمين في عهد نور الدين محمود بنوع من عدم التقدير؛ لأنه لم يتوصل إلى إسقاط إمارة صليبية أو مملكة بيت المقدس اللاتينية، وهو أمر يخالف وقائع التاريخ؛ إذ إن المرحلة من 1146 إلى 1171م هي مرحلة توازن القوى Balance of Powers والتي من خلالها كان التمهيد للمرحلة التالية وأعني بها ما بين عامي 1171، 1187م، وبالتالي، من العسير للغاية دراسة صلاح الدين دون أستاذه؛ لذلك أصدرت كتابي بعنوان «نور الدين محمود وصلاح الدين فارسان مجاهدان من عصر الحروب الصليبية»، تأكيداً لتلازمهما، وبالتالي علينا أن ندرس قادة حركة الجهاد الإسلامي كعناصر ضمن ظاهرة تاريخية واحدة، ولا نقع في مأزق الفردية والشخصنة؛ لأنهم بالفعل كانوا جميعاً في قافلة واحدة دخلت التاريخ من أوسع الأبواب ووراهم التراب بعد جهاد وجهد مضنيين!!

هكذا، ليس في الأمر مفاجأة، إذ أننا أمام الأستاذ والتلميذ، ولا يعني هذا أبداً أن صلاح الدين كان بمثابة نسخة مكررة من أستاذه، بل كانت له شخصيته وقراره الجماعي على نحو أفاده في تاريخه العسكري والسياسي؛ حيث لا نجد أخطاءً فادحة أو هزائم عسكرية تباد فيها قواته على عكس ما نجده لدى إمبراطور بيزنطي عاصره هو مانويل كومنين (1143-1180م)، الذي ألحق الأتراكُ السلاجقة به هزيمة فادحة في معركة مرياكيفالون Myriokephalon عام 1176م، فكانت كارثة كبرى على الجيش البيزنطي وهو أحد أقوى الجيوش في المنطقة خلال عصر الحروب الصليبية.

من الإنصاف القول هنا؛ إن كلا الرجلين كانا من كبار فرسان الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، كما أنهما ارتبطا بالشام/ مصر، أو تلك الرابطة الجغرافية والتاريخية بين بلاد الشام ومصر عبر عصور التاريخ، إلا أنه من الممكن القول بأن نور الدين محمود كان السياسي القدير أكثر من كونه العسكري البارز مقارنةً بصلاح الدين، وإن كنا نذكر له الانتصار في معارك عديدة أبرزها – بلا ريب – معركة «حارم» عام 1164م، وهي أكبر انتصارات الجيش النوري ضد الصليبيين.

من ناحية أخرى، نجد أن نور الدين محمود لم يترسخ في العقل الجمعي الأوروبي في العصور الوسطى، على عكس ما حدث بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي، وتعليل ذلك أنه لم يتصل بكبار ملوك وأباطرة أوروبا، بينما تعامل معهم صلاح الدين حربياً أو دبلوماسيا كما في حالة ريتشارد قلب الأسد (1189- 1199م) ملك إنجلترا، وفردريك بارباروسا (1152- 1190م) الامبراطور الألماني، وفيليب أغسطس (1180- 1223م) ملك فرنسا.

كما لا نغفل أن نور الدين محمود لم يملك الشخصية الكاريزمية الآسرة، وهو أمر وجدناه عند صلاح الدين، ويكفي في ذلك شهادة الطبيب والمؤرخ والرحالة العراقي موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت 1223م) الذي التقى به شخصياً وقدم لنا إشارة تاريخية فريدة تفيد ذلك.

أما فيما يتصل بحجم التأليف الأدبي والتاريخي عنهما، فإننا نجد أن التلميذ يتفوق على أستاذه بلا ريب!! إذ أننا في حالة محاولة رصد

ببليوغرافي لِما كُتب عن القائدين سنكتشف أن حجم ما ألف عن نور الدين قليل إذا ما قارناه بما أُلف عن صلاح الدين الأيوبي، الذي في مقدورنا القول إن هناك مكتبة كاملة عنه بالعديد من لغات العالم.

ختاماً، لقد عاش الرجلان في عصر الحروب الصليبية، وكلٌّ قدم جهده في مواجهة الصليبيين، ولا يمكن كتابة تاريخ الجهاد الإسلامي في ذلك العصر دون أن نذكرهما ونذكر قيادتهما للمسلمين في مواجهة العدوان الصليبي.

-31-

أسامة بن منقذ والسلطان

كان صلاح الدين الأيوبي يُقدر الفارس، والشاعر، والدبلوماسي، والرحالة، والأديب أسامة بن منقذ، ويحفظ بعضاً من أشعاره، فمن هو ذلك الرجل المتعدد المواهب؟

ولد أسامة بن منقذ في شيزر الواقعة على نهر العاصي عام 1095م في نفس العام الذي أعلن فيه البابا أوربان الثاني (1088-1099م) الدعوة إلى الحروب الصليبية في مجمع كليرمونت بفرنسا.

عُرف عن أسامة بن منقذ حب الشعر وبراعته فيه، ولذلك اعتبر من أبرز شعراء بلاد الشام في ذلك العصر، وأقام علاقات متعددة مع الصليبيين ومنهم فرسان الداوية الذين قدّروا فيه فروسيته.

ألف أسامة بن منقذ العديد من المؤلفات نذكر منها:

- كتاب الاعتبار.
- البديع في الشعر.
- القلاع والحصون.

من الملاحظ أن ذلك العلم الشامي ألّف كتابه «الاعتبار» وذلك بعد أن مرت به الأعوام، ووضع فيه حصاد خبرته مع الحياة، ويعد مصدراً على جانب كبير من الأهمية عن عصر الحروب الصليبية، حيث تحدث فيه عن العديد من الجوانب الإنسانية التي يندر أن نجدها لدى مؤرخي الحوليات المسلمين في ذلك العصر.

من ناحية أخرى، عاصر أسامة بن منقذ معركة حطين عام 1187م التي هزم فيها المسلمون الصليبيين هزيمة فادحة، وقد توفي في العام التالي أي عام 1188م.

السؤال الآن، ما هي العقدة الإبداعية لأسامة بن منقذ؟ الواقع أننا نستطيع أن نجدها في الزلزال المدمر الذي حل بشيزر عام 1157م، ففتك بأهله جميعاً؛ فأدرك أن الحياة لا تساوي شيئاً وأن من الممكن للمرء أن يفقدها في أية لحظة!!

بصفة عامة، أدرك المعاصرون أهمية أسامة بن منقذ في الحياة الأدبية في ذلك العصر؛ لذلك نجد له ترجمته في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الكاتب الأصفهاني (ت 1201م)، وكذلك لدى ياقوت الحموي (ت 1228م) في كتابه «إرشاد الأريب في معرفة الأديب» المعروف «بمعجم الأدباء»، كما أورد ابن خلكان (ت 1282م) ترجمة له في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان».

هكذا، في مقدورنا القول أن هناك شخصيات بارزة عاصرت صلاح الدين الأيوبي وتألقت في العديد من المجالات، على نحو دل على حدوث نهضة علمية وأدبية، وبعث للأمة كان له دوره الحيوي في مواجهة الغزاة الصليبيين، وهو أمر تكشف لنا على نحو مفصل في كتب التراجم، والطبقات، والوفيات.

-32-

صلاح الدين وحلب

كان صلاح الدين يدرك جيداً أهمية إخضاع مدينة حلب حاضرة شمالي بلاد الشام، من أجل تدعيم وضعه الاستراتيجي في مواجهة الصليبيين، لقد أخضع دمشق عاصمة بلاد الشام التاريخية مبكراً عام 1174م، إلا أن جارتها الشمالية تأخر إخضاعها إلى عام 1183م، وكان يدرك بثاقب بصره استحالة مواجهة الصليبيين دون إخضاع خط دمشق – حلب وظهيره في صورة الموصل حاضرة شمالي العراق.

هكذا ندرك أن مثلث (دمشق – حلب – الموصل) كان أساسياً من أجل نقل الصراع مع الصليبيين إلى الحدود الفلسطينية ذاتها؛ إذ أن

نقل المعركة إلى داخل حدود المملكة الصليبية ذات الرقعة الجغرافية المحدودة أصلاً والتي تعاني من نقص العنصر البشري؛ كان يعني انهيار تلك المملكة أمام كفاءة الجيش الأيوبي الذي كان في مقدوره تعويض خسائره على نحو يسير بفضل سهول وديان النيل والعاصي والفرات.

تمتعت حلب بموقع جغرافي استراتيجي فريد؛ فهي حاضرة شمالي بلاد الشام، واتصلت بالموصل بخط دفاعي استراتيجي، كما أنها وقعت على طريق الحرير الذي امتد من شنغهاي في الصين إلى فينسيا بإيطاليا. وقد حظيت حلب بثراء تجاري ضخم بحكم سيطرتها على طريق التجارة بين العراق، وبلاد الشام، والأناضول، واحتوت على بيوتات عريقة في تثمير الأموال، كما أشارت المصادر التاريخية المعاصرة.

من ناحية أخرى، احتوت حلب على قلعة بالغة الحصانة لم تكن تجد ما ينافسها في العمارة الحربية الإسلامية على كافة بقاع بلاد الشام، ولا ريب في أن إخضاع القلعة المذكورة كان من شأنه دعم الأيوبيين عسكرياً وسياسياً.

تمكن صلاح الدين الأيوبي وقواته من إخضاع حلب عام 1183م، ويقال إنه وهو يصعد إلى القلعة قال لرفقائه إنه لم يسعد بإخضاع مدينة كما سعد في حالة حلب.

في أعقاب السيطرة على حلب بأربعة أعوام فقط؛ كان الجيش الأيوبي يخوض غمار معركة حطين الفاصلة في 4 يوليو عام 1187م، والتي من بعدها تم تحرير بيت المقدس في 2 أكتوبر من العام المذكور.

أُذكّر القارئ أن المؤرخ البارز لتلك المدينة هو كمال الدين ابن العديم (ت 1261م) المؤرخ والدبلوماسي الذي ترك العديد من المؤلفات، يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- بغية الطلب في تاريخ حلب.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب.
- الوصلة إلى الحبيب في ذكر الطيبات والطيب.
- نور المصباح في الحث على السماح.
- تعزية الأكباد عن فقد الأولاد.
- الإفادة في تاريخ بني جرادة.

ويعد الكتابان الأول والثاني من أهم المصادر التاريخية عن حلب حاضرة شمالي بلاد الشام ذات التاريخ العريق منذ أبكر العصور.

ومما يمزق قلبي حزناً حالياً، أن تتعرض هذه المدينة التي تفوح منها عراقة التاريخ، لويلات الأحداث العنيفة في سوريا العزيزة، وأتمنى مخلصاً أن تستقر الأمور هناك كي أتشرف وأسعد بزيارتها.

-33-

الحروب الصليبية صراع على المياه

كان الصراع الإسلامي – الصليبي في جانب رئيسي منه صراعاً على المياه!! نعم على المياه، وقد حرص الغزاة منذ بدايات قدومهم إلى المنطقة على إخضاع منابع ومسارات ومصبات الأنهار في بلاد الشام؛ لإدراكهم أن الماء سر الحياة ولا تقوم بدونه، لذلك لم يكن غريباً أن يخضع الصليبيون أنطاكية حاضرة نهر العاصي عام 1098م بعد حصار مرير استمر عاماً كاملاً (1097- 1098م)، كما أنهم أخضعوا 12 نهراً في لبنان؛ حيث وجدوا دعماً من عناصر الموارنة هناك، كذلك نعرف أنهم سيطروا على جانب من نهر العاصي الذي وقفت عليه مدينتا حمص وحماه.

كذلك لا نغفل إخضاعهم لبحيرة طبرية؛ وهي أكبر بحيرة مياه عذبة في بلاد الشام، لذلك من الممكن القول أن الغزاة خلال حوالي العقدين الأولين من استعمارهم (أي استدمارهم) للمنطقة حسموا قضية المياه لصالحهم على نحو أكد لنا عملياً أننا نتعامل مع خبراء الاستعمار في العصور الوسطى؛ أعني الصليبيين.

وفي هذا النطاق علينا الانتباه إلى أن مرتفعات الجولان احتوت على (500) نبع ماء، وكان جبل الشيخ بمثابة منبع المياه في فلسطين، وقد حدث صراع على تلك المرتفعات بين المسلمين والصليبيين، وكانت السيادة متبادلة بين الجانبين، بل حاولوا عقد معاهدات من أجل تقسيم المياه هناك من خلال نظام المناصفة، وهو أمر لاحظناه في دراسة الدولة البورية، وكذلك النورية، أما فيما يتصل بالجانب الإسلامي، فنلاحظ أن نور الدين محمود – مهندس حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني من القرن 12م – قد أدرك بثاقب بصره قيمة تدخله في الصراع الوزاري في مصر الفاطمية من خلال إخضاع مصر والسيطرة على نهر النيل بكل ثرواته الزراعية والتجارية وكثافته السكانية، وفي مقدورنا القول دون أن نُتهم بالشوفينية الخرقاء، أن من يُخضع ذلك النهر – وهو أطول أنهار الدنيا – كان في مقدوره حسم الصراع بين المسلمين والصليبيين، دون إغفال أهمية عوامل أخرى لا نجد داعياً لتفصيلها في هذا المقام.

استغل صلاح الدين سهول وديان النيل، والعاصي، والفرات، من أجل دعم قواته العسكرية على نحوٍ جعله يملك أكبر قوة بشرية ضاربة في الشرق.

وفي معركة حطين الفاصلة عام 1187م، جُعِلتْ بحيرة طبرية خلف الجيش الأيوبي، وتم استعمال سلاح التعطيش الذي فتك بالصليبيين إلى جانب استغلال الحر الشديد في شهر يوليو، وإشعال الحرائق في الأعشاب الموجودة في منطقة حطين.

هكذا يتضح لنا أن الأرض والمياه كانتا الهدف الأصلي للمشروع الصليبي، وأن القيادات الإسلامية ممثلة في نور الدين وصلاح الدين أدركا ذلك الأمر، كما أن من أتى بعدهما أدركوا ذلك أيضاً، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم من أجل وضع الموارد المائية بمناطق الصراع في قبضتهم.

-34-

صلاح الدين وبيت المقدس

احتلت مدينة بيت المقدس أرقى مكانة في قلب وروح ونفس صلاح الدين؛ فمنذ طفولته الباكرة، استمع إلى ما ارتكبه الصليبيون فيها من مذبحة مروعة عندما غزوها يوم الجمعة الموافق 15 يوليو 1099م، وقد استمرت تلك المذبحة الشنعاء عشرة أيام ولم تتوقف إلا يوم الاثنين الموافق 25 يوليو من العام المذكور، وراح ضحيتها نحو 70 ألفا من أبنائها.

هكذا وُلد وعاش، وحُلمُ تحريرها يسيطر على وجدانه، وبالفعل صار فيما بعد محرر المدينة المقدسة من دنس الاحتلال الصليبي الغاشم، حيث قاد المسلمين لذلك الحدث المحوري في تاريخ العلاقات

بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، والذي حدث في يوم 2 اكتوبر 1187م في أعقاب معركة حطين الفاصلة.

ولكي ندرك أهمية المدينة المذكورة لدى صلاح الدين؛ علينا مطالعة عبارات ذلك السلطان كما نقلها العماد الكاتب الأصفهاني (ت: 1201م) الأديب البارز، ورئيس ديوان الإنشاء الأيوبي، وهي كالتالي: «إنْ أُسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته القدس فما أسعدَنا، وأيُّ يد له عندنا إذا أيدناه، فإنه مكث في يد الكفر إحدى وتسعين سنة، لم يتقبل اللهُ فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دون متوسنة، وخلت القرون عند متخيلة، وحلت الفرنج به متولية.

فما ادخر الله فضيلة فتحٍ إلا لآل أيوب؛ ليجمع لهم بالقبول القلوب. وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار، لتفتخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار.

وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى؛ والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى؛ وهو مقام الأنبياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المَحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر، وفيه الصخرة التي صينت جدةُ إبهاجها من الإبهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج، وفيه ومض البارق ومضى البراق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق».

عزيزي القارئ، القدس الآن أسيرة ذليلة في قبضة الصهاينة الذين يعيشون على أوهام مريضة تتعلق بالهيكل المزعوم، ومنذ عام 1967م إلى كتابة هذه السطور عام 2016م لم يجدوا شيئاً ولن

يجدوا بإذن الله تعالى، وقد أقر العالم الأثري توماس تومسون أن الإسرائيليين يبحثون عن سراب، وهذه حقيقة علمية مؤكدة، ويلاحظ هنا أنهم كلما بحثوا؛ وجدوا ما يدعم الحقوق العربية الأصيلة، وهل بعد المسجد الأقصى وقبة الصخرة وهي أجمل أثر إسلامي على وجه الأرض دليل على عروبة تلك المدينة التي تتحدى مغتصبيها؟! وعبر صفحات كتابي هذا أوجه التحية وأشد على أيدي المقادسة الأبطال الذين يتمسكون بمدينتهم التي عشقها صلاح الدين وحررها، وتنتظر على أحر من الجمر يوم تحريرها من أشتات يهود العالم الذين قدموا إلى فلسطين وسرقوها في جريمة كاملة المعالم، لا نظير لها في التاريخ، وكل يوم يمر تزداد الجريمة بشاعة، لكن الله تعالى غالب على أمره، وستعود القدس لأهلها يوماً مهما طال الزمان!!

-35-

القاضي الفاضل والدولة الأيوبية

المؤرخة الفلسطينية موفورة النشاط هادية دجاني شكيل، التي أعدت دراستها عن «القاضي الفاضل ودوره في الدولة الأيوبية»، وعملت في جامعة تورنتو بكندا، حرصت أشد الحرص على تكوين فريق عمل من كبار المؤرخين من أجل دراسة قضايا الصراع الإسلامي – الصليبي على فلسطين في مرحلة العصور الوسطى، وقد شارك فيه عدد من المؤرخين الكبار نذكر منهم:

- دانيال ساهاس.
- حنا قسيس.
- جان ريتشارد.

- ميشيل بالار.
- نيكيتا اليسيف.
- محمود إبراهيم.
- بني كول.
- برهان الدجاني.
- يوسف حنا غوانمة.
- ليندا نورثروب.
- كامل جميل العسلي.
- أحمد يوسف الحسن.

وقد صدر ذلك العمل العلمي الرائد من جانب مؤسسة الدراسات الفلسطينية، التي أسسها المؤرخ الفلسطيني الراحل أنيس صايغ (1931-2009م) في بيروت.

ومن المهم هنا الإشارة إلى فقرة ذكرتها تلك المؤرخة الفلسطينية القديرة عن صلاح الدين الأيوبي، وكيف وطد أقدامه في مصر، حيث قالت: «نفذ صلاح الدين وبسرعة هائلة عدداً من المشاريع في مصر، مكنته خلال خمسة أعوام من السيادة على مصر والشام معاً، وكان أول مشاريعه بناءُ جيشٍ يدين بالولاء الكامل له، وتحويل المؤسسات الإدارية والدينية إلى مؤسسات أيوبية سنية، وقام بهذا العمل وزيره القاضي الفاضل، الذي اختار رؤساء للدواوين الجديدة لصلاح الدين، ثم ألغى الخلافة الفاطمية بعد أن أضعف العناصر الموالية لها في الجيش والمؤسسات، وقام صلاح الدين بهذه العمليات الكبرى المشوبة بالأخطار بسرعة أذهلت من حوله، لكنه كان رجل

عمل وتدبير ذاق مرارة السياسة وخطورتها، وتعلم من تجاربه في مصر، ولم يمكن مراكز القوى المصرية من القضاء عليه فقضى عليها بنفسه.

كانت مصر القاعدة الأولى، بل الأساسية، لمسيرة صلاح الدين الحربية، هيأته لضم الشام مع مصر تحت حكمه، تحرير الشام من الفرنج (أي فلسطين، والأردن ومعظم لبنان وسوريا)».

هكذا، أدركت هادية دجاني شكيل، قدرة صلاح الدين الأيوبي على قيادة المسلمين حينذاك، وفي نفس الحين سرعة الإنجاز على نحو كان له أكبر الأثر في تحويل سياسة توازن القوى لصالح المسلمين في نهاية المطاف.

-36-

الفلسطينيون وصلاح الدين

في رحلتي الممتدة، اتضح لي أن الفلسطينيين يعشقون صلاح الدين!! لا ريب في هذه العبارة؛ لأنه يرتبط ذهنياً لديهم بتحرير مدينة بيت المقدس من قبضة الصليبيين بعد أن طال بقاؤها في أسرها البغيض على مدى الأعوام من 1099 إلى 1187م.

لقد تعمق صلاح الدين في عقول وأرواح أبناء فلسطين، تلك البقعة العزيزة من العالم العربي والإسلامي التي تم السطو عليها لصالح أشتات من يهود العالم والتي ستظل عربية إلى يوم القيامة مهما حاول الغازي أن يغير من أسماء المدن ومعالمها الطبيعية وبنيتها السكانية لإخفاء معالم جريمة كاملة تامة قائمة لا ولن تسقط بالتقادم!!

يرتبط صلاح الدين لدى أبناء فلسطين بتحرير المسجد الأقصى؛ ذلك المعلَم الذي يدعم عروبة فلسطين السليبة، ويؤكد أن الأرض تنطق بعروبتها لاشك في هذا.

في تقديري، أن بقاء صلاح الدين في العقل الجمعي العربي بمثل هذه الصورة التي تفيض بالحياة، من أسبابه مأساة فلسطين القديمة والجديدة، وبحث أبنائها عن البطل الذي أعاد لزهرة المدائن روحها السليبة؛ فوجدوه في ذلك الفارس البارز من عصر الحروب الصليبية.

عجيب أمر الفلسطينيين، وغريب أمر صلاح الدين!! الاثنان لا يمكن القضاء عليهما أبداً، تعرَّض أبناء فلسطين لحرب إبادة على مدى ما زاد عن قرن كامل، وقُتل منهم مئات الآلاف، وتشردوا في كافة أنحاء العالم شرقا، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً، دون أية جريمة ارتكبوها، ومع ذلك ظلوا يتمسكون بأهداب الحياة، ويبدعون اقتصاداً، وعلماً، وأدباً، وشعراً، إذ هم ليسوا كالهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين، وليسوا مثل سكان أستراليا الذين قضى عليهم المستعمر الغربي عندما أبادهم.

قاوموا كل محاولات الأعداء بجدارة وصبر يحسدون عليهما، وظلت قضيتهم قائمة على الرغم من البون الشاسع بين الضحية والقصّاب!! وكذلك صلاح الدين ظل حاضراً في القلوب والعقول والأرواح، يقاوم النسيان بحيوية تاريخية غير مسبوقة أو ملحوقة دون أدنى مجاملة، ولو بحثتَ عن شخصية رائدة في تاريخ المسلمين في العصور الوسطى بعد سيرة رسول الله صلى الله

عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وعدد آخر من كبار الخلفاء المسلمين في العصرين الأموي والعباسي، ستجد اسم صلاح الدين الأيوبي، وإنجاز المسلمين في عهده بارزاً لا ريب في ذلك!! وذلك على الرغم من محاولات التشويه والاغتيال الأدبي التي نكبنا بها في الأعوام الأخيرة منذ عام 2003م – تحديداً – فصاعداً.

هكذا أخلصُ إلى حقيقة مفادها: اثنان لا يمكننا القضاء عليهما: صلاح الدين الرمز القوي للجهاد ضد الغزاة، وحق الفلسطينيين الطبيعي في دولة مستقلة بعد أن فاضت دماؤهم كالنهر الذي يصرخ في ضمير العالم.. «ومن حقنا العودة إلى ديارنا التي سُلبت منا وكفانا تشرداً وتشريداً، فإن تلك الجريمة البشعة آن لها أن تتوقف!! وكفانا الشهداء الذين روت دماؤهم الطاهرة أرضنا التي تصرخ بعروبتها».

-37-

سيف صلاح الدين

ليس من الممكن الحديث عن صلاح الدين دون تناول الكلام عن سيفه الذي حمله في قبضة يده، وحارب به الصليبيين، والذي نجده دوماً في التماثيل التي شيدت تكريماً له، وجدناه ممسكاً بسيفه الذي كان دمشقياً، حيث اشتهرت دمشق بصناعة السيوف ذات الشهرة العالمية.. هكذا، لم يكن غريباً أن وجدنا باحثين يتناولون تلك السيوف الدمشقية وصناعتها؛ فالمستشرق جيرس بياسكوفسكي، اشترك في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب التي نظمها معهد التراث العلمي العربي التابع لجامعة دمشق عام 1977م ببحث عنوانه: الصلب الدمشقي أروع المنجزات في علم التعدين، كما

أن الأثري السوري البارز عزيز بهنسي أعد بحثاً عنوانه: صناعة السيوف الدمشقية، ونشره في الكتاب الذهبي للاحتفال بالكتاب الخمسيني للدراسات الأثارية بجامعة القاهرة عام 1978م، ولا أغفل ذكر كتاب عبد الرحمن زكي بعنوان «السيف في العالم الإسلامي»، الذي أصدره بالقاهرة عام 1967م.

على شبكة الأنترنت بحثت عن السيف الدمشقي فوجدت إشارات مهمة:

- كان السيف الدمشقي يصنع بتلك المدينة الخالدة منذ آلاف السنين، وقد اشتهر بجودة المعدن الذي كان يصنع منه، وعُرف عنه صلابته، وكذلك ملمسه الناعم، وكان الصناع الدماشقة المهرة يصنعون أعداداً وفيرة منه لتزويد الجيوش، وعدت صنعته سراً خاصاً بهم، حاول أهل الغرب التوصل إليه دون جدوى.

وأخيراً تم التوصل إلى أن ذلك السيف تميز من خلال أنابيب الكربون النانوية.

اتجهت إلى مجلة العلوم وهي الترجمة العربية لمجلة سيانتيفيك الأمريكية الصادرة في عدد أغسطس – سبتمبر 2001م ووجدت المعلومات التالية:

1- تمتاز تلك السيوف بخاصتين فريدتين لن تجدهما في الأنواع الأوروبية مثل سيوف الفايكنج Vikings مثلاً في صورة الوشي المموج المعروف باسم الدمسك Damask، الذي يتميز بتزيين سطحها، وثانيهما النصل المرهف الحاد للغاية.

2- كانت السيوف الدمشقية تصنع من سباك (صبات) ingots

صغيرة من الفولاذ (مزيج من الحديد والكربون) يتم شحنها من الهند، وتؤلف المواد الأولية التي أطلق عليها بدايات القرن التاسع عشر الميلادي اسم سبائك الفولاذ الهنديWootz ingots، وكانت تشبه الأقراص المطاطية المستعملة في لعبة هوكي الجليد، بقطر يقارب أربع إنشات وارتفاع يقل قليلاً عن إنشين، وقد تأكد أن صنع السيوف الدمشقية كان يتم من خلال تطريق forging هذه السبائك مباشرة إلى نصال، وذلك بعمليات تسخين heating ومطل hammering متكررة كثيراً، مع العلم أن الفولاذ يحتوي على 1,5% من الكربون وزناً، وذلك بالإضافة إلى نسبة منخفضة من الشوائب الأخرى مثل السيلكون، والمنجنيز، والفوسفور، والكبريت.

هذه لمحة عن السيف الدمشقي الذي اكتسب شهرة عالمية، وكذلك الفارس صلاح الدين الذي كان يحارب به، وأتعجب من أمر دمشق تلك المدينة الخالدة خلود التاريخ، حارب صلاح الدين بسيف صنع فيها، وانتهى أمره إلى أن دفن في ثراها الطاهر، ولا يُكتب تاريخ ذلك الفارس دونما ذكر تاريخ دمشق!! إذاً فلتفاخر عروس الشام وعاصمته التاريخية بذلك الأمر دوماً، ولنترحم جميعاً على فارس الإسلام الذي رقد فيها إلى الأبد بعد رحلة حياة حافلة بالجهاد.

-38-

مصاعب الكتابة عن صلاح الدين

سألني أحد طلاب الدراسات العليا قائلاً: ما هي المصاعب التي صادفتك في إعداد كتبك عن صلاح الدين الأيوبي؟

أجبته: هناك العديد من المصاعب التي واجهتني، ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً: كانت لديَّ رغبة شديدة في عدم التكرار، وبالتالي حرصت على الاحتفاظ بالفكرة المركزية التي تحكم فصول كل كتاب من المؤلفات عن صلاح الدين دون زيادة أو نقصان قدر المستطاع، ودوماً أتذكر العبارة التي علمني إياها زميلي العزيز د. سلامة البلوي، ومفادها: «مَن ألَّف فقد استهدف»، وهي تمثل لي شعاراً

أضعه دوماً نُصْب عينيَّ، ولذلك حرصت دوماً على عدم وجود كتاب يستشعر قارئه أنه مشابه للآخر من مؤلفاتي عن ذلك السلطان قدر الإمكان.

ثانياً: أردت دوماً الإتيان بالجديد قدر الإمكان، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، إذ تابعت قراءة المصادر والمراجع بروح نقدية، وسعيت إلى تناول زوايا غير مطروقة – قدر المستطاع – وساعدني على ذلك ثراء العصر التاريخي ذاته، ثم ثراء شخصية صلاح الدين نفسه.

ثالثاً: واجهتني مشكلة لم أجد لها حلاًّ!! وتتمثل في غزارة المؤلفات عن ذلك السلطان، بالعديد من لغات العالم، ولذلك عندما أعددت دراسة عنه من خلال الزاوية البيبليوغرافية؛ أدركتُ أن من العسير جعلها شاملة؛ نظراً لتعدد إسهامات المؤرخين والأدباء، وبالتالي لم يكن هناك مناص من الإقرار بأن ذلك يستدعى جهداً جماعياً من مجموعة من الباحثين كي نقلل عدد الإصدارات التي يمكن أن يفتقدها العمل الفردي الذي هو قاصر بطبعه.

رابعاً: كانت هناك صعوبة فيما يتصل بكاريزما صلاح الدين، فالرجل كان له تأثيره الكاسح على معاصريه الذين تعاملوا معه عن قرب، وهو ما أكده – كما أسلفت الذكر من قبل – الطبيب والمؤرخ البارز موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (1231م) الذي تعامل معه مباشرة.

في واقع الأمر، هناك من أقر صراحةً بأنني وقعت أسيراً في كاريزما صلاح الدين، والرد على ذلك أنني بذلت جهدي للفكاك منها، من خلال التعرض للأخطاء التي وقع فيها.

ثم التأكيد على أن صلاح الدين نفسه؛ يُعد ابناً للحضارة الإسلامية التي من قيمها التسامح مع الآخر بغض النظر عن الدين أو العرق أو الجنس، وأن ذلك السلطان كان نتاجاً لعصره الزاخر بالأحداث، والذي شهد المواجهة الشرسة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وبالتالي أكدتُ أيضاً على فكرة العمل المتكامل وأن أصغر جندي في جيشه كان صاحب يد بيضاء على السلطان نفسه؛ لأن التاريخ يصفه بالبطل الفرد، وكذلك بالبطل المتمثل في المجموع البشري المعاصر له.

خامساً: هناك زاوية مهمة فيما يتصل بالتوازن بين الكم والكيف، وهو أمر احتاج مني جهداً خاصاً؛ إذ كنت أراقب ما كتبته من قبل وأحاول – قدر جهدي – تطوير كتابتي التاريخية عن السلطان، مع ملاحظة أن ذلك التوازن يتطلب أن يشحذ المؤلف ذهنه من أجل استنفار حصاد خبرته حتى لا يطغى جانبٌ على آخر.

ألفت النظر هنا إلى أهمية تقبل النقد من الآخرين، وأذكّر القارئ أنني عندما أصدرت كتابي الأول عن السلطان وهو بعنوان صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، عام 2008م أهديتُ نسخة منه إلى صديقي الصدوق د. سمير صبري شبل؛ بجامعة الإسكندرية، وسألته عن رأيه فيه، فأوضح لي أنه عملٌ جاد، إلا أنه كان يتوقع مني ما هو أفضل!! سعدتُ للغاية بهذا النقد، وقررت السفر إلى السلطان بدمشق من أجل البحث عن جديد في المشاعر والأفكار وحتى الخواطر.

كان ذلك عام 2010م، ومن يتابع مؤلفاتي من بعد الرحلة

الدمشقية؛ سيلاحظ أنني أفدتُ منها تماماً على نحو انعكس على باقي كتبي، حيث صرتُ أكثر فهماً واقتراباً من السلطان على الرغم من الفارق الزمني الكبير بيننا.

عندما أصدرت كتابي «رحلة إلى صلاح الدين الأيوبي» عام 2011م، قدمت نسخة منه إلى الصديق العزيز المذكور كي أستطلع رأيه فيه، فأشار عليّ أنه وجد جديداً.. فسعدت بذلك.

أنصح كل باحث في المجالات التاريخية، أن يفيد من النقد الموضوعي؛ لأنه الطريق إلى تصحيح الأخطاء، لأننا لا نرى في المرآة إلا ما نريد أن نراه نحن في أنفسنا وأعمالنا، بينما نغفل رؤية الآخرين لنا وهي مهمة للغاية كي تكتمل جوانب الصورة، خاصةً أن ذلك الآخر هو ذلك القارئ الذي لن يسامح المؤلف إذا أخطأ.

سادساً: هناك زاوية محورية في صورة واضحة وهي طغيان الخبرة على الدهشة الأولى! فالمؤرخ عندما تتوافر لديه خبرة في موضوع ما؛ قد يتصور أنه صار خبيراً به على نحو يورده موارد الخطأ دون أن يدري، لذلك حرصت على التعامل مع تاريخ صلاح الدين كأنني باحث مبتدئ، لديه الدهشة الأولى، والرغبة في الاكتشاف، وهي محورية من أجل البحث عن تاريخه الحافل بالأحداث.

من جانبي، أنصح كل مؤرخ لموضوع ما، ألّا يتوهم أنه أصبحت لديه الخبرة الواسعة، بل يظل باحثاً صغيراً، ومكتشفاً في غابة العلم. هذا الأمر أفادني للغاية، وأتذكر أن أستاذي د. حسن حبشي قال لي: «كيف ألفتَ كتابك (فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية)؟ لقد قرأته عدة مرات، وكل مرة كنت أجد جديداً فيه!! فأجبته: «هذا من فضل ربي»!

تذكرت مقولة الكاتب الكبير عباس محمود العقاد الذي قال: «أُفضل أن أقرأ الكتاب ثلاث مرات عن أن أقرأ ثلاثة كتب»!! وبالطبع في كل مرة تخرج بجديد؛ لأن القارئ لا يكون كما كان عندما قرأ الكتاب في المرة الأولى.

تلك السطور القليلة، كتبتها كي يدرك القارئ – سواء كان المثقف العام أو المؤرخ الشاب – أن الأمر لم يكن سهلاً، وقد بذلت قدر الجهد ما يمكن أن أصفه بمحاولات الاقتراب من تاريخه، ودائما أردد آية قرآنية في مقدمة كل كتبي وهي قوله تعالى: «وفوق كل ذي علم عليم». والأمل معقود على باحثين آخرين يدرسون ويستمتعون بالبحث والتنقيب عن رجل في قيمة وقامة صلاح الدين الأيوبي، وكذلك المسلمين الذين صنعوا معه تاريخاً حافلاً بالأمجاد!

من جانبي، فإنني على يقين أن هناك من الباحثين من سيرتاد البحث عن صلاح الدين ويتمكن من أن يأتى بجديد لم أتمكن شخصياً من الوصول إليه.

-39-

مقارنة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد

دائماً يرتبط الاسمان معاً؛ صلاح الدين الأيوبي، وريتشارد قلب الأسد، وبالتالي نحاول عقد مقارنة موجزة بين القائدين البارزين في الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية.

يمكن إجمال هذه المقارنة على النحو الآتي:

1- ولد صلاح الدين عام 1138م بتكريت بالعراق، بينما ولد ريتشارد قلب الأسد في عام 1157م في قصر بومونت على ما هو محتمل في أكسفورد في إنجلترا؛ أي أن صلاح الدين كان أكبر من خصمه الإنجليزي بـ (19) عاماً.

2- اتسمت شخصية ريتشارد بالعنف والدموية، فقد ارتكب مذبحة لليهود ببلاده في أوائل حكمه، وقام بمذبحة لحامية عكا المسلمين

بعد أن سقطت في أيدى قواته، بينما لم يوصف صلاح الدين بذلك الوصف.

3- اتصف صلاح الدين بالسياسة والحكمة والدبلوماسية، بينما افتقر ريتشارد لتلك الصفات.

4- يتفق القائدان معاً أن هناك أسطورتين نُسجتا حولهما، إلا أن أسطورة صلاح الدين كانت الأدوم والأبقى، وصنعها الغرب نفسه، بينما المسلمون لم يقدروا ريتشارد.

5- لم يعرف عن صلاح الدين ما يشينه أخلاقياً، أما ريتشارد فأنقل ما ورد عنه في موقع ويكيبيديا عنه حرفيا: «منذ خمسينيات القرن الماضي، أصبحت حياة ريتشارد الجنسية مثيرة للاهتمام والجدل، مع أنه من النادر ما عالج المؤرخون الفيكتوريون والإدوارديون هذه المسألة، إلا أن المؤرخ جون هارفي تحدى ما كان يُنظر إليها على أنها مؤامرة الصمت التي تحيط بشذوذ ريتشارد الجنسي، اعتمدت تلك الفكرة في المقام الأول على الوثائق التاريخية التي تخص سلوك ريتشارد، حيث تؤكد بعض السجلات التاريخية أن ريتشارد قام بالاعتراف والتوبة مرتين، كما أنه لم ينجب أطفالاً طيلة فترة زواجه من برنجاريا.

ويتحدث المؤرخ روجر الهوديني عن راهب قد حذر ريتشارد من خطر اللواط، وطلب منه عدم القيام بالأعمال غير المشروعة، وبناءً على ذلك كان ريتشارد قد حصل على الغفران، فعاد إلى زوجته التي هجرها زمناً طويلاً، وابتعد عن الفاحشة التي كان يرتكبها، وظل مخلصاً لزوجته حتى أصبحا كالجسد الواحد، لكن هذه النظريات

تناقض حقيقة أن ريتشارد أنجب طفلاً غير شرعي واحد على الأقل (فيليب)، وكذلك تناقض المزاعم التي تفيد أن ريتشارد أقام علاقات جنسية مع النساء المحليات خلال الحملات التي كان يقوم بها.

ومازال المؤرخون منقسمين حتى اليوم حول هذه القضية، حيث يوجد بعض المؤيدين لنظرية جون هارفي، في حين هناك مؤرخون لا يوافقونه مثل غيليفغام الذي يعتقد أن ريتشارد كان سوِياً، أما جان ملوري فيقول بأن ريتشارد كان مثلي الجنسي، مستدلاً على توبة ريتشارد عام 1170 وكذلك عام 1195م التي يقول فلوري إنها كانت توبة من اللواط».

من ناحية أخرى أنقل للقارئ الإحالات المرجعية عن المؤرخين الذين اتهموا ريتشارد بذلك الأمر:

.J.Brundage Richard Lion Heart, New York 1974, pp.38,88,202,257

S.Runciman, A History of The Crusades, VOI.III, Combridge1951, .P. 194

J. Boswell, Christianity, Social Tolerance and Homosexuality, .Chicago 1980, p.231 ff

6- هناك فارق بين القائدين على مستوى اللياقة الجسدية؛ إذ كان صلاح الدين معاقاً في قدمه، بينما ريتشارد قلب الأسد كان سليم البنية، ودائماً نقول هنا ليست الإعاقة إعاقة جسد، بل إعاقة روح وإرادة.

7- عاش صلاح الدين (55) عاماً، حيث توفي في 4 مارس عام 1193م، بينما عاش ريتشارد (43) عاماً حيث توفي في 6 أبريل عام 1199م.

8- يمكن وصف ريتشارد بمقاييس إنجليزية محلية، أما صلاح الدين فقد صار رمزاً للعالمين العربي والإسلامي، وخرج تماماً من النطاق المحلي الضيق.

9- أنجب ريتشارد ابناً واحداً غير شرعي كما ذكرتُ، بينما أنجب صلاح الدين (17) ابناً وابنة واحدة، وحفظ لسيرته أخلاقها الطيبة.

10 - مكث ريتشارد أغلب مدة حكمه خارج حدود إنجلترا، حيث أمضى عمره في معارك وصراعات سياسية وحربية، وكذلك خلال مرحلة الأسر، بينما أمضى صلاح الدين حياته بين العراق وبلاد الشام ومصر، ولم يغادر حدود دولته.

11- اضطهد ريتشارد اليهود، وأحدث مذبحة لهم في بداية حكمه، بينما أحسن إليهم صلاح الدين وسمح لهم بدخول بيت المقدس بعد أن حرَّمها الصليبيون عليهم، بل إن طبيبه الشخصي وهو موسى بن ميمون كان يهودياً (ت 1204م).

12- تمكن ريتشارد قلب الأسد من الحج إلى المحارم المسيحية المقدسة في فلسطين بعد أن عقد صلح الرملة في 2 سبتمبر 1192م، بينما لم يتمكن صلاح الدين من أداء الحج والذهاب إلى الحجاز نظراً للظروف الحربية التي مر بها، ناهيك عن أوضاعه الصحية.

13- إننا نعرف معلومات كاملة عن أم ريتشارد وهي اليانور الأكويتانية Eleanor of Aquitaine وهي زوجة هنري الثاني Henry II (1133-1189م) ملك إنجلترا والتي كانت زوجة الملك الفرنسي لويس السابع Louis V11 (1120-1180م) من قبل

وكانت عاشقة لشعر التربادور Trubador؛ وهو الشعر الغنائي الفرنسي، إلا أننا لا نعرف أي معلومات عن والدة صلاح الدين بحكم طبيعة المجتمعات المسلمة المحافظة، خاصة أنها لم تظهر على مسرح السياسة أو النشاط الاجتماعي.

تلك لمحة مقارنة بين أشهر قائدين من عصر الحروب الصليبية؛ ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين الأيوبي.

-40-

جدوى دراسة صلاح الدين

ذات مرة، خلال رحلتي مع تاريخ صلاح الدين، سألني طالب: ما جدوى دراسة تاريخه ونحن الآن في عام 2016م؟

واقعُ الأمر أن سيرة ذلك القائد يمكن أن تكون نبراساً لنا يضيء طريق الحياة لكل قارئ، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال العناصر الآتية:

أولاً: كان ذلك الفارس عصامياً، ولم يكن يعتمد على أصول نبيلة تؤهله لما وصل إليه، لكن بالكفاح والعمل والجهد والعرق، فاز بما نال من مجد وفخار، وهو مثال حي للشاب الطموح الذي يصارع أحداث الزمان كي يصل بشرف إلى ما يريد، ولكل من يبحث عن نجاح.

إن النجاح لا يأتي إلى أحد على طبق من ذهب، بل من خلال العمل الدؤوب، وأذكر هنا قول الشاعر:

بقدر الكدّ تُكتسَبُ المعالي = ومَن طلب العلا سهر الليالي

وقول الآخر:

لا تحسَبِ المجد تمراً أنت آكله = لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

هكذا من الممكن القول إن صلاح الدين على رأس عصاميين عظماء صنعوا التاريخ ومعه المسلمون الذين وجدوا فيه رجل الساعة الذي أخلص للجهاد، فأخلص له الجهاد، ودخل بيت المقدس محرراً إياه من الصليبيين.

ثانياً: التسامح؛ إذ أن ذلك الفارس قدَّم لنا مثلاً حياً ينبض بمنتهى الحياة، حتى بلغ تسامحه الأعداء، فما بالنا بأنفسنا!! ولذلك علينا أن نتسامح ونطوي صفحة الماضي، ولا نكون أسرى أغبياء له؛ فالمستقبل يبدأ من الآن كما يقال، ولا حياة مع من يتعصب التعصب الأعمى الذي يدمر ولا يعمر، ويخرب ولا يبني، هكذا دخل ذلك الفارس التاريخ من خلال تسامحه الذي أشاد به حتى الأعداء.

بالنسبة لنا، فلنتسامح مع أنفسنا أولاً، ثم مع الآخرين؛ لأن الحياة ذاتها أقصر مما نتوهم، لذا فالتسامح وقودها، وبدونه تصبح جحيماً على الجميع!!

ثالثاً: التفاؤل واليقين بالنصر؛ قدم لنا ذلك الفارس مثالاً على التفاؤل، ففي أصعب المواقف كان التفاؤل رفيقه، وحارب ومعه المسلمون جيوش أوروبا الجرارة مجتمعة ولم يتطرق إلى قلبه اليأس الأسود البغيض، لذلك نقل التفاؤل إلى الآخرين وفي صحبته اليقين التام بالنصر لأنه «لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، صدق الله العظيم.

فيا كل متشائم قانط ساخط رافض للحياة، اجعل من سيرة صلاح الدين النهر المتدفق بمياه التفاؤل الجاري التي تروي الآخرين.

وأذكر القارئ ببيتين من إبداع شاعر لبنان الفيلسوف إيليا أبو ماضي (1890-1957م):

أيّـهـذا الـشّـاكـي ومـا بـك داءٌ
كيف تغدو اذا غـدوتَ عليلا؟

أترى الشّوكَ في الورود، وتعمَى
أن تـرى فوقها النّدى إكليلا؟

كما أذكّرك بقول ابن مصر البار وعاشقها الزعيم مصطفى كامل (1874-1907م): «لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس».

هكذا إذا ما تذكرنا صلاح الدين، تذكرنا صراعه مع الأعداء، ومعه شمس الأمل ونور اليقين في النصر، وهو بالتالي يقول: عبر تاريخنا الحافل بالنضال، لكل عابس متجهم، الحياة جميلة لأنها هبة الله تعالى لنا، علينا أن نحياها ونعمر الأرض قبل أن تأتي ساعة الرحيل؛ فمن لا تعرف الابتسامة طريقاً لوجهه، لم يعرف معنى الحياة.

رابعاً: تحدي الإعاقة؛ إذ كان ذلك الفارس معاقاً في قدمه، وعلى الرغم من ذلك فقد دخل التاريخ من أوسع الأبواب على صهوة جواد الكفاح والنضال لا ريب في ذلك.

فيا كل معاق، اعلم أن الإعاقة ليست إعاقة جسد، بل إعاقة روح وإرادة!! انطلق إلى الأمام، وهناك من عظماء التاريخ من كانوا معاقين جسداً لكن أرواحهم كانت تنبض بالمجد، ومن أمثلتهم أبو العلاء المعري

(973-1057م)، وابن سيده البطليوسي (1007-1066م)، وهيلين كيلر (1880-1968م)، وطه حسين (1889-1973م).

أما الأول فهو عبقري الشام الأديب الفيلسوف الذي كان كفيفاً وأبدع اللزوميات، ورسالة الغفران التي تأثر بها أديب إيطاليا الكبير دانتي ألليجري. أما الثاني ابن سيده البطليوسي فهو عالم اللغة الأندلسي الفذ الكفيف، وقد ألف كتابه المخصص في اللغة (17) مجلداً، والمحكم والمحيط الأعظم (18) مجلداً، وأعد باحثون عديدون رسائلهم للماجستير والدكتوراه عنه.

أما هيلين كيلر فهي تلك الأمريكية التي كانت عمياء بكماء صماء، وعلى الرغم من ذلك أحبت الحياة، وكانت تقول: أنا عمياء لكنني أرى، وأنا صماء لكنني أسمع، وكانت تقول: كلما أُغلق باب للسعادة، فتحتُ باباً آخرا، وقد ألفت (18) كتاباً وترجمت كتبها إلى خمسين لغة، فصارت المثل الحي على تحدى الإعاقة.

أما عميد الأدب العربي د. طه حسين، فقد تحدى فقدان البصر بنور البصيرة، وبالتالي وصف عن حق بأنه قاهر الظلام، ووصل من عزبة الكيلو بالمنيا إلى العالمية، وألف العديد من المؤلفات نذكر منها:

- الأيام.
- شجرة البؤس.
- حديث الأربعاء.
- على هامش السيرة.
- حافظ وشوقي.

- من حديث الشعر والنثر.
- في الشعر الجاهلي.
- من بعيد.
- أديب.
- قادة الفكر.
- مع المتنبي.
- مستقبل الثقافة في مصر.
- ابن خلدون.
- ذكرى أبي العلاء.
- صوت باريس.
- مرآة الإسلام.
- الفتنة الكبرى.
- كلمات.
- تقليد وتجديد.
- كتب ومؤلفون.
- من الشاطئ الآخر.
- الوعد الحق.
- الحب الضائع.
- من هناك.
- بين بين.
- جنة الحيوان.

- نقد وإصلاح.

- الشيخان أبو بكر وعمر.

وغير ذلك كثير.

هكذا يقدم لنا صلاح الدين درساً في تحدى الإعاقة مثلما فعل الآخرون من قبله ومن بعده، فهل يمكن استلهامها ونحن في عام 2016م أي بعد رحيله بقرون عديدة؟

الإجابة المؤكدة، نعم، يتأكد لنا أن سيرة صلاح الدين الأيوبي يمكن أن تفيدنا الآن، وحتى بعد ذلك.

-41-

العقاد وصلاح الدين

في رحلتي تنقيباً وبحثاً وتأليفاً عن فارس الإسلام النبيل في عصر الحروب الصليبية، لاحظت أن أديب مصر البارز عباس محمود العقاد (1889-1964م) ألف عنه مقالاً فريداً صدر في العدد الأول من مجلة العربي الكويتية الذائعة الصيت وتحديداً في ديسمبر عام 1958م.

الأديب المذكور، عصامي حتى النخاع، ولم يحصل من التعليم سوى المرحلة الابتدائية، ولكن بالقراءة والمثابرة وصل إلى ذروة لم يصل إليها كثيرون، وتم إعداد (40) رسالة علمية للماجستير والدكتوراه عنه. ومن أهم مؤلفاته:

- معاوية بن أبي سفيان في الميزان.
- إبراهيم بن سيار.
- أبو الأنبياء إبراهيم.
- جيتي.
- جحا الضاحك المضحك.
- ساعات بين الكتب.
- الحكم المطلق في القرن العشرين.
- الديمقراطية في الإسلام.
- ديوان العقاد.
- سعد زغلول، سيرة وتحية.
- رجال عرفتهم.
- شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة.
- عبقرية محمد.
- عبقرية الصديق.
- عبقرية عمر.
- عبقرية الإمام علي.
- عبقرية خالد.
- الحسين بن علي سيد الشهداء.
- فاطمة الزهراء والفاطميون.
- الفلسفة القرآنية.
- معركة الإسلام وأباطيل وخصومه.
- سارة.

- أنا.
- شكسبير.
- الشيوعية والإسلام.
- ابن سينا.
- عبد الرحمن الكواكبي.
- القائد الأعظم محمد علي جناح.
- مطالعات في الكتب والحياة.
- المرأة في القرآن.
- هتلر في الميزان.
- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية.
- وهج الظهيرة.
- يسألونك.
- يوميات.
- دراسات في المذاهب الاجتماعية.

وهناك عشرات من المؤلفات الأخرى التي تؤكد بالفعل صدق قول زعيم مصر الراحل سعد زغلول عندما وصفه بالكاتب الجبار!!

في مقالته عن صلاح الدين الأيوبي، نلاحظ جيداً أنه قرأ على نحو موسع عنه من قبل قيامه بإعداد المقالة المذكورة، كذلك ندرك تقديره التام لتلك القيادة البارزة من عصر الحروب الصليبية.

أشاد العقاد بتسامح صلاح الدين ونبل أخلاقه، وذكر أن أحد الأسرى الصليبيين كان يخشى أن يفتك به ذلك السلطان، ولكن عندما التقى به وجهاً لوجه؛ أدرك مدى تسامحه وعفوه، وانبهر بأخلاقه في عصر اشتهر بالمذابح التي ارتكبها الغزاة الصليبيون.

كذلك أشار إلى اهتمام صلاح الدين بمشورة الآخرين، ولذلك قال: «لقد كان صلاح الدين يسمع ويعي في حينه»، وتلك صفة مهمة للقائد حتى لا يعتمد على رأيه فقط، ويغفل تصورات الآخرين.

أما في تقييمه لذلك الفارس، فنجده يذكر عنه: «رجل مستوفى، لذلك أصدَقُ ما يوصف به فارس الشرق والإسلام في كلمتين اثنتين: رجل متعدد الجوانب نمت لديه أسباب القدرة على الحكم والسياسة، وتوازنت عنده صفات الشجاعة والدهاء، وخلائق الرفق والشدة، واستوفى حظه من أصدقائه وأعدائه، فلا تجد بين عظماء الرجال في عصور العداوات والحروب رجلاً حسنت فيه شهادة الأعداء والأصدقاء على السواء، وكاد يغنيه إنصاف الولي الودود».

من الملاحظ أن كاتبنا الكبير ألف مقالته عام 1958م، وهو عام الوحدة الرائدة بين أرض الكنانة مصر وشقيقتها الجغرافية والتاريخية سوريا العزيزة، هكذا كان العقاد يستلهم التاريخ في وحدة مصر وبلاد الشام خلال مواجهة الصليبيين من خلال جهد وجهاد صلاح الدين بطل الإسلام، ولذلك ختم مقاله قائلاً: «صلاح الدين بطل الإسلام، حائط الشرق، حامي فلسطين! وما أحرانا أن نذكره في هذا الزمن، بل في هذه السنة كلما تذكرنا مكيدة الكائدين للإسلام، وخديعة الطامعين في الشرق وجريمة المتآمرين على أرض فلسطين! وما أحرانا أن نستعد لهم بالأمس بسيف ذي حديد وعدة ذات سلاحين، مضاء ودهاء، وهمة حاضرة وطول أناة على تقلب الآراء».

هكذا، قدم لنا ذلك الكاتب «الجبار» مقالة محكمة مركزة عميقة

عن صلاح الدين، فنجد مدادها ما جف بعد، فنطالعها في عام 2016م ونجد أن ما احتوته من أفكار عميقة ورؤى ثاقبة كأنها كُتبت في زماننا، وليس منذ (58) عاماً مضت من عمر الزمان!!

رحم الله صلاح الدين الأيوبي ورحم عباس محمود العقاد.

-42-

ويلهام الثاني وصلاح الدين

حظي السلطان خالد الذكر صلاح الدين الأيوبي بتقدير الإمبراطور الألماني ويلهام الثاني (1888-1918م)، فقام بزيارة دمشق عام 1898م، وذلك استجابة لدعوة من جانب السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وقد أقيمت ترتيبات فخمة لاستقباله، وحدث خلاف بين كلّ من صدر دمشق أحمد باشا شمعة، وبين أمير الحج عبد الرحمن باشا اليوسف حول من له الأولوية في استقبال الضيف الألماني الكبير، على نحو جعل والي دمشق حسين ناظم باشا يقرر أن يكون الاستقبال في قصر دمشق، وقد أشار المهندس السوري طلال العقيلي في دراسة له عن هذه الزيارة إلى أن استقبالاً ضخماً عُقد خصيصاً

للضيف الألماني في ساحة المرجة، وامتطى عربة يقال إنها كانت مجللة بالذهب الخالص تجرها أربعة خيول، وخلفها مركبة مخصصة لموكب الإمبراطور، ثم مائة مركبة ضمت عناصر حاشيته.

وفي اليوم التالي، قام ذلك الإمبراطور بزيارة ضريح السلطان خالد الذكر صلاح الدين، وأهدى الضريح إكليلاً من الغار مصنوعاً من البرونز، وظل هذا الإكليل موجوداً في مكانه إلى أن دخل دمشق الضابط البريطاني لورنس العرب Lawrence of Arabia فقام بالسطو عليه، وهو الآن محفوظ في المتحف الحربي في بريطانيا؛ وبالتالي فإننا إزاء قصة سلطان وإمبراطور ولص!! قام الإمبراطور بزيارة الضريح، ويقال إنه خلع غطاء رأسه وانحنى إجلالاً وتعظيماً له. تجدر الإشارة إلى أن أمير الشعراء أحمد شوقي خالد الذكر خلد هذه الزيارة حيث قال:

عظيمُ الناسِ من يبكي العظاما
ويَندُبُهم ولو كانوا عِظاما
فهل من مُبلِغٍ غليومَ عنِّي
مقالاً مُرْضِياً ذاك المقاما؟
رعـاكَ الله مِن ملكٍ هُمام
تعهَّدَ في الثَّرَى مَلِكاً هُماما
أَرى النِّسيانَ أَظماَه، فلمَّا
وقفتَ بقبرهِ كنتَ الغماما
أتـدري أيَّ سلطانٍ تحيِّي
وأَيَّ مُملَّكٍ تُهدي السَّلاما؟!

دَعَوْتَ أَجَلَّ أَهلِ الأَرضِ حَرْباً

وأَشرفَهم إذا سَكنوا سَلاما

هكذا، كانت قصيدة أمير الشعراء الذي ما غادرته الإمارة يوماً إلى يومناً هذا تحيةً لزيارة الإمبراطور الألماني الذي قدر السلطان صلاح الدين تقديراً عظيماً(*) .

(*) ملحوظة: أفدت من الفيس بوك في كتابة هذا الفصل بمقال عنوانه زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لدمشق.

-43-

بين صلاح الدين وجمال عبد الناصر

هناك تشابه بين صلاح الدين وجمال عبد الناصر؛ يتفق الاثنان في غزارة المؤلفات عنهما بالعديد من لغات العالم؛ إذ أن مادتي صلاح الدين وجمال عبد الناصر لا تخلو منهما أية موسوعة عالمية، ومع ذلك فالاختلاف نجده في أن المؤلفات عن الأول تتفوق على الثاني نظراً لتقدمه زمنياً، وبالتالي فالمساحة الزمنية بالنسبة له متسعة أي على مدى (9) قرون، أما الثاني فقد مضى على رحيله (46) عاماً فقط.

يتفق الاثنان في تحدي الغرب خلال عصر الحروب الصليبية بالنسبة لصلاح الدين، وخلال النصف الثاني من القرن العشرين بالنسبة لجمال عبد الناصر.

القائدان يتفقان في أن كلا منهما قام بثورة، إذ إن عام 1171م شهد ما يمكن وصفه بثورة حقيقية ضد الحكم الفاطمي الغاشم الذي شاخ وبلغ من الكبر عتياً، وعام 1952م شهد ثورة قادها جمال عبد الناصر ضد حكم أسرة محمد علي التى كان الفساد قد سيطر عليها من خلال سيرة الملك فاروق.

كما يتفقان في تعدد محاولات الاغتيال، إذ إن صلاح الدين تعرض لثلاث محاولات، أما جمال عبد الناصر فهناك من يقرر أنها بلغت (25) محاولة مما دل على تعددها وكثرة أعدائه وحرصهم الذي لا يتوقف على اغتياله.

يتفق الاثنان في زيارة الناس لقبرهم في دمشق والقاهرة، وإن كان الاختلاف أن صلاح الدين يزوره السائحون من كافة أنحاء العالم، أما جمال عبد الناصر فيزوره على نحو خاص العرب في الأغلب.

يشترك القائدان في أن المرض كان ثمن صراعهما مع أعدائهما، حيث رحل صلاح الدين مريضاً في 4 مارس 1193م، وكذلك رحل جمال عبد الناصر في 27 سبتمبر 1970م.

خلاصة القول، يتفق الاثنان في أشياء ويختلفان في أخرى، إلا أن الأمر المؤكد أنهما من أبرز من أنجبتهما الأمة العربية الإسلامية، ولا يُكتب تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى وكذلك الحديثة دون ذكرهما.

يتفق المؤرخون حولهم في أمر مراسم التشييع الأخيرة، فمن خلال وصف ابن شداد في كتابة النوادر يتضح لنا أن جنازة صلاح

الدين كانت مشهودة، وكذلك جمال عبد الناصر، إلا أن الأخير تفوق على الأول نظراً لوجود وسائل الإعلام المختلفة؛ مسموعة ومرئية ومقروءة، حيث شارك فيها في مصر ما يقدر بـ (5) ملايين شخص كما يقال في وقت كان عدد سكان مصر لا يتجاوز (30) مليوناً، كذلك أقيمت الجنازات في عدد من الدول العربية والإسلامية حزناً عليه.

-44-

حسن حبشي وصلاح الدين

في رحلتي مع صلاح الدين، تعاملت مع راهب من رهبان الفكر في مصر والعالمين العربي والإسلامي.. إنه المؤرخ والمحقق والمترجم الكبير الأستاذ الدكتور/ حسن حبشي (ت: 2005م)؛ الذي كان بالفعل صاحب رسالة، فلم يصدر مؤلفاته العديدة من أجل لجان الترقيات العلمية كما يفعل أغلب الباحثين، بل من أجل خدمة مصر ورفعة شأنها وخدمة الإسلام وعالمه.

قام ذلك العالم البارز بترجمة كتاب عن صلاح الدين وريتشارد خلال الحملة الصليبية الثالثة لمؤرخ مجهول، وقد قدمت له النص الإنجليزي بعد أن ترجمته عن اللاتينية هيلين نيلكسون المؤرخة

البريطانية الشهيرة، فاكتشف أن لها أخطاء علمية!! بفضل ما امتلكه من قدرة على النقد والتحليل والإجادة التامة للإنجليزية.

كان دائم الحديث معي عن صلاح الدين، وقد قدَّره تقديراً عظيماً، وكثيرا ما ذكر أن دوره في قيادة المسلمين نحو استعادة القدس لا يُنسى في التاريخ.

على مدى حياتي العلمية الممتدة، لم أجد مؤرخاً يوصف فعلاً بأنه راهب من رهبان العلم مثل هذا الرجل!! وطوال المرحلة من 1997 إلى 2005م، كان نعم الأستاذ والصديق، وبدأت صلتي به عندما اكتشفت له خطأً يسيراً في إحدى محاضراته، وهو خطأ ذاكرة كما يقال، فإذا به بعد المحاضرة يسألني عن رقم الهاتف، لتبدأ رحلة صداقة علمية رائعة مع ذلك العالم، وقد شرفني عندما كتب لي مقدمة كتابي «الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب»، الذي صدر عام 1999م بمناسبة مرور (900) عام على سقوط بيت المقدس في أيدي الغزاة الصليبيين.

كنت أزوره في بيته في المهندسين، وكثيراً ما قبلت يده ورأسه اعتزازاً به على الرغم من أنه لم يُدرس لي خلال سنوات الدراسة الجامعية. ودائماً ما كنا نتحادث في الهاتف على نحوٍ يومّي، فأفدتُ من عقله الواعي على الرغم من تقدمه في العمر. كان صلاح الدين يجمعنا وعصر الحروب الصليبية رفيقنا دوماً.

في ذات يوم نسيت هاتفي المتحرك في المنزل، وفي المساء اتصل بي صديقي وزميلي العزيز د. أيمن فؤاد سيد المحقق البارز وشقيق صديقي الراحل د. أحمد فؤاد، وإذ به يقول: أين أنت يا دكتور

مؤنس؟ بصوت فيه ألم وحسرة!! إن حبشي قد مات وصلينا عليه ودفناه!!

يا للهول، ويا للكارثة!! أستاذي وصديقي ورفيقي في الحديث عن صلاح الدين يرحل هكذا!! صُدمت بهذه الكلمات المتلاحقة، وشعرت بأن الأرض مادت من تحت قدمي، وافتقدت إنساناً رائعاً، كان بالفعل راهباً للعلم، وأشد ما آلمني أنني كنت قد خصصتُ عنه فصلاً في كتابي عن رواد تاريخ العصور الوسطى في مصر، وقد صدر الكتاب بعد وفاته ولم يشاهد ما كتب عنه في هذا الفصل، وفيما بعد أعددت عدة مؤلفات عن صلاح الدين ولم أجد هذا الراهب يحدثني عن رأيه فيها، فزادت الحسرة حتى صارت نهراً تنتحر فيه الأشواق، وتغرق فيه الأماني المستحيلة التحقق!!

بعد رحيله وتحديداً عام 2015م، أصدرت كتابي «معجم عصر الحروب الصليبية»، وهو من أهم ما كتبه قلمي الحزين على رحيله، ولم أجد الراهب بجواري، وتذكرت عبارة أخي وصديقي وأستاذي د. سلامة البلوي الذي قال لي يوماً: «نعيُ صديقك نعيٌ لك»، فأدركت أن عيني تدمع على د. حبشي، وغداً لعل هناك من الأوفياء – إن وُجدوا – من تدمع عيونهم على كاتب هذه السطور الذي يوصف بأنه مؤرخ صلاح الدين!!

بماذا أختم هذه السطور؟ سأقول: الوداع يا دكتور حبشي.. وإلى لقاء لعله قريب جداً!!

-45-

ابن الأثير مؤرخاً للحروب الصليبية

أنجب العراق العزيز مؤرخين ومؤرخات درسوا صلاح الدين، بل تعمقوا فيه، لذلك أفدتُ من مؤلفاتهم القيمة، ومن أفضل مؤرخات العراق المؤرخة/ ميسون ذنون العبابجي التي تعمل بمعهد دراسات الموصل بجامعتها العزيزة، وقد اتصلت بي من خلال البريد الإلكتروني أثناء إعداد أطروحتها المتميزة بعنوان: ابن الأثير مؤرخاً للحروب الصليبية (490-588هـ/1096-1192م)، وقد أشرف عليها المؤرخ العراقي البارز د. جزيل عبد الجبار الجومرد.

وناقشتها في يوم 14/8 /2003م، وتكونت لجنة المناقشة من المؤرخين الأفاضل:

أ.د. عبد المنعم رشاد.

أ.د. عبد الجبار ناجي الياسري.

أ.د. مرتضى حسن النقيب.

أ.د. ناصر عبد الرزاق ملا جاسم.

أ.د. غانم عبد الله خلف.

أ.د. جزيل عبد الجبار الجومرد.

تمتاز الباحثة المذكورة بالخلق النبيل، وقد شكرتني في مقدمة رسالتها على ما قدمته لها – وهو فعلاً قليل – هكذا تكون الأخلاق التي تُحمد لصاحبتها!!

قسمت مؤرختنا الباحثة خطة رسالتها على النحو الآتي:

الفصل الأول: عصر ابن الأثير وحياته.

الفصل الثاني: ابن القلانسي وكتابه ذيل تاريخ دمشق مصدراً لابن الأثير عن تاريخ الحروب الصليبية المبكرة.

الفصل الثالث: العماد الأصفهاني ومؤلفاته التاريخية مصدراً لابن الأثير.

الفصل الرابع: مصادر أخرى.

والدراسة المذكورة من أفضل أعمال المؤرخين العراقيين؛ إذ امتازت مؤرختنا بالدقة العلمية، والصبر، والجلد، ولم تتسرع في إعدادها، ومن الجلي البين أن مشرفها المؤرخ القدير استطاع إخراج أفضل ما لديها من أفكار وتعبير عنها بأسلوب علمي سلس.

ألفت نظر القارئ إلى أن إعداد الموضوع تطلب من المؤرخة المذكورة قراءة كل سطر من سطور المصادر التي طالعتها، بل قراءة ما بين السطور وما وراءها وهذا هو الأهم في تقديري.

تناولت المؤرخة في رسالتها موقف المؤرخ العراقي البارز ابن الأثير من صلاح الدين، ونقده له في عدة مواقع؛ منها فشل حصار صور خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة (1189-1192م)، حيث أرجع مسؤولية هذا الفشل إلى صلاح الدين نفسه وسياساته حيال الصليبيين، عندما أطلق سراح الكثيرين منهم فتحصنوا بها، وعندما أراد فتحها عجز عن تحقيق ذلك.

لقد أنصفت ميسون ذنون عبابجي صلاح الدين عندما أوضحت الأسباب الحقيقية وراء فشل فتح المدينة المذكورة وأوردتها من خلال التالي:

- مناعة أسوار مدينة صور وحصانتها.

- الأسطول الذي كان قد خرج من مصر لنجدة المسلمين المحاصَرين في صور، صادف أن قائده قد غفل عن حراسة خمسة شواني كانت تمنع أهل صور من الخروج لقتال المسلمين، واستغل الصليبيون تلك الفرصة، فهجموا على تلك الشواني، وقتلوا من أرادوا، وأخذوا الباقين بسفنهم وأدخلوهم ميناء المدينة على نحو كان له أثره السيئ على المسلمين.

- الظروف الجوية السيئة نتيجة لدخول الشتاء وهطول الأمطار بغزارة، مما أدى إلى امتناع المقاتلين عن القتال، مما يؤكد أن الجغرافيا توجه التاريخ، وما التاريخ إلا الصراع عليها، وفي مقدورنا القول أن «جنرال» الشتاء قد عاق صلاح الدين عن ضم صور.

- ألح الأمراء على صلاح الدين في الرحيل عن صور، من أجل أن ينال جنودهم قسطاً من الراحة بعد صراعهم المستمر مع الصليبيين.

ولا ريب في أن كافة تلك العوامل كان لها دورها الفعال في فشل حصار صور.

بصفة عامة، عبر صفحات كتابي هذا أوجه تحية خالصة إلى تلك المؤرخة الوفية الجادة التي أعدت دراسة جديرة بكل تقدير، وتحدت الظروف القاسية التي عانى منها العراق العزيز وشعبه الذي قدم للإنسانية جمعاء حضارة رائعة من أقدم وأعرق الحضارات التى عرفها التاريخ البشري قاطبة.

-46-

صلاح الدين بين العراق والشام ومصر

تساءلت مع نفسي: ما معنى أن صلاح الدين وُلد في العراق، وعاش في الشام، وقدم إلى مصر ثم دفن في دمشق؟

المعنى من وراء ذلك وحدة الأقطار الثلاثة في مواجهة الأخطار!! والارتباط الوثيق بين أنهار دجلة، والفرات، والعاصي، والنيل، وهي أنهار هزمت الصليبيين عندما وجدت الرجال الذين يعون جيداً درس التاريخ.

الزاوية الأخرى، أن كل إقليم عمل منفرداً في مواجهة الخطر الصليبي؛ فشل تماماً في مواجهته، ومن ثم كان هناك ضرورة للوحدة من أجل لم الشمل نحو تحقيق الهدف الواحد الذي حلمت الأمة بأسرها أن تحققه في أسرع وقت وعلى أكفأ صورة.

الأقطار الثلاثة العراق، والشام، ومصر، ذات عمق حضاري لا ينكره ناكر، وبالتالي فإن تاريخ صلاح الدين لم ينشأ من فراغ، بل من خلال عمق حضاري كبير.

جاء ذلك الفارس من مناطق لا نظير لها في الحضارة في وقت كانت أوروبا لا تزال طفلة في ركب التقدم الإنساني باعتراف المنصفين من المستشرقين.

دُفن صلاح الدين بعيداً عن تكريت، في دمشق المدينة الساحرة، الرائعة الخالدة التي حكمت يوماً ما أكبر خلافة عرفها المسلمون في تاريخهم في العصور الوسطى والتي امتدت من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، وكان السلطان من العاشقين لدمشق.

هكذا أعطى صلاح الدين لتلك المدينة - بإذن الله تعالى من قبل ومن بعد – خصوصية خاصة، فيكفيها أنه دفن فيها، على نحو أكد مركزتيها كعاصمة لبلاد الشام قبل سايكس بيكو أو من بعد تلك الاتفاقية الغادرة التي لازلنا ندفع ثمنها بعد مائة عام من توقيعها.

من زار دمشق ولم يزر فارس الإسلام لم يزرها؛ فصلاح الدين هو الحارس التاريخي لها.. وكل سوري دمشقي، نجد فيه بعضاً من صلاح الدين!! فعندما تتجول في شوارعها الضيقة تدرك أن روح صلاح الدين مرت ولا تزال من هنا!!

وعندما تسأل عن ضريحه ويشير إليه الناس، تعرف أنه أحد أفراد عائلتهم، ولا تصدق أبداً أنه رحل عن دنيانا عام 1193م، بل لا يزال تاريخه ينبض بالحياة، بمنتهى الحياة حتى يومنا هذا عام 2016م، فهل هناك حضور أكبر من ذلك؟!

أختتم هذا الفصل بعبارة أرجو أن يعيها القارئ جيداً: هناك أحياء موتى.. وهناك موتى أحياء!!

سبحان المُحيي المميت الذي هو على كل شيء قدير.

-47-

امرأتان في حياة صلاح الدين

امرأتان في حياة صلاح الدين، إحداهما لا نعرف عنها شيئاً، والأخرى مشهورة. أما الأولى فهي أمه، التي لا نعرف عنها شيئاً، نظراً لطبيعة المجتمعات الإسلامية المحافظة، ومع ذلك في مقدورنا استنتاج صفاتها من معرفتنا بشخصية المرأة الكردية من العفاف وقوة الشكيمة والإصرار وشدة المراس، وأتصور أن الصفات المذكورة منحتها مع أبيه إلى ابنها الفارس. وكمؤرخين؛ فإننا ندين لهذه المرأة بالكثير، على الرغم من عدم وجود مادة تاريخية عنها؛ إذ حملته تسعة أشهر، وأرضعته عامين، وعلّمته الشيء الكثير خلال سنوات عمره الأولى، وبالتالي كونت منه بطلاً.

أما الثانية، فهي عصمت الدين خاتون، أرملة نور الدين محمود وزوجة صلاح الدين، وقد تزوجها عام 1176م، وتوفيت عام 1186م، ولم تعش لليوم الذي تم فيه تحرير بيت المقدس، وإذا قيل وراء كل عظيم امرأة، فإن ذلك ينطبق تمام الانطباق على عصمت الدين خاتون التي عُرف عنها الحكمة، وكان صلاح الدين يستشيرها فتقدم له رأيها الراجح.

كانت تحلم بتحرير بيت المقدس والمسجد الأقصى، وتوفيت قبل ذلك بعام واحد!! هكذا شاءت الأقدار.

ذات يوم، قرأتُ لدى مؤرخ فرنسي أن صلاح الدين ورث عن نور الدين محمود دولته وكذلك أرملته! وهو قول يعكس نفسية مريضة، فالواقع أن صلاح الدين تزوجها حتى يحفظ لها مكانتها كسلطانة، ولم يكن ذلك إذلالاً لها أبداً، ولا يتناقض ذلك مع أمر الزواج السياسي المذكور، وأمر الفارس وأحقيته في أن يحكم دولة نور الدين محمود بعد وفاته.

لا يُكتب تاريخ الحروب الصليبية ودور صلاح الدين، دون أن يُذكر دور المرأة المسلمة؛ فالتاريخ امرأة، والمرأة ليست نصف المجتمع، بل هي المجتمع كله لأنها منجبة النصف الآخر.

هكذا يتأكد لنا أن صلاح الدين عندما يكتب تاريخه، لا بد من الإشارة والإشادة بأمه وبزوجته، حيث صنعتا ذلك البطل على نحو يؤكد لنا في حالة صلاح الدين أن وراء كل عظيم امرأتيْن هما أمه وزوجته!!.

-48-

أعظم 20 قائداً عسكرياً

وجدت على شبكة الإنترنت موقعاً تم إنشاؤه عام 2007م، يتناول أعظم (20) قائداً عسكرياً في التاريخ، وقد أورد أصحاب الموقع المذكور أسماءهم على النحو التالي:

- برنارد مونتجومري (1887- 1976م).
- جورج اس باتون (1887- 1945م).
- ارفين روميل (1891- 1945م).
- جوزيف ستالين (1878- 1953م).
- صلاح الدين الأيوبي (1138-1193م).
- محمد الفاتح (1429- 1481م).

- تيمور لنك (1336- 1405م).

- جورج واشنطن (1732- 1799م).

- نابليون بونابرت (1769- 1829م).

- طارق بن زياد (679- 720م).

- خالد بن الوليد (592- 642م).

- أدولف هتلر (1889-1945م).

- يوليوس قيصر (100ق.م – 44ق.م).

- جنكيز خان (1169-1227م).

- هانيبال (247ق.م- 184 ق.م).

- قورش الثاني أو الكبير (576 أو 590 ق.م- 530ق.م)

- تحتمس الثالث (1479-1425 ق.م).

- الإسكندر الأكبر (356ق.م –323ق.م).

- عمر بن الخطاب (586- 644 م).

- محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (571- 632 م).

الواقع أن لي تحفظات عديدة على القائمة المذكورة في التالي:

- لا يمكن أن يوضع محمد عليه الصلاة والسلام مع تلك القائمة التي تحوي مجرمي حرب حقيقيين، وأرى أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم منفرداً، وفي مكان آخر لا يجتمع بقادة الغرب.

- من الخطأ والخلط البين؛ أن يضع القائمون على الموقع المذكور أدولف هتلر، وجنكيز خان وستالين من أعظم (30) قائداً عسكرياً؛ إذ أشعل الأول بتعصبه الحرب العالمية الثانية (1939- 1945م)،

والثاني أقام المذابح في المناطق التي توسع فيها، والثالث قتل مليونين من البشر، فأية عظمة تلك التي يتحدثون عنها؟!

إن قائمة الأسماء المذكورة، تعكس بجلاء المركزية الغربية؛ فالغالبية من أهل الغرب من التاريخ القديم أو الحديث، عموماً لم ينس القائمون على هذا الموقع فارس الإسلام إبان الحرب الصليبية؛ أعني به صلاح الدين الأيوبي الذي أرى أنه يتفوق على غيره من القادة الغربيين في الأخلاق، مثل الإسكندر الأكبر قديماً ونابليون بونابرت حديثاً، ويتجلى ذلك في سلوكه مع المهزوم، الذي تعامل معه بإنسانية، ولم يكن حريصاً على سفك الدماء مثلما كان يحرص على ذلك كثير من القادة الغربيين، الذي كان ضعيفاً أمام رغبته في الانتقام.

-49-

سيدة الكاشف مؤرخة صلاح الدين

أستاذتنا المؤرخة المصرية القديرة الراحلة د. سيدة إسماعيل الكاشف (ت 2015م)، رحلت في صمت دون تقدير رسمي حقيقي، ودون أية ضجة إعلامية لأمر يسير؛ هو أنها لم تكن من أهل الفن أو السياسة، بل كانت مؤرخة قديرة احترمت نفسها فأهانها مسؤولو بلدها!

أصدرت المؤرخة المذكورة عدة مؤلفات أذكر منها، كي يستعيد القارئ سيرتها وماذا قدمت للمكتبة العربية ويترحم عليها، وتجمل في الآتي:

- مصر في فجر الإسلام، ط. القاهرة 1947م.
- مصر في عصر الإخشيديين، ط. القاهرة 1950م.

- مصر في عصر الولاة، ط. القاهرة 1959م.
- مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين (بالاشتراك مع محمود حسن)، ط. القاهرة 1960م.
- مصادر التاريخ الإسلامي ومنهج البحث فيه، ط. القاهرة 1960م.
- الوليد بن عبد الملك، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة 1963م.
- أحمد بن طولون، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة 1965م.
- عبد العزيز بن مروان، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة 1967م.
- عُمان في فجر الإسلام، ط. القاهرة 1979م.
- مصر الإسلامية وأهل الذمة، سلسلة تاريخ المصريين، ط. القاهرة 1993م.
- صلاح الدين بطل وحدة الصف العربي الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله، ط. بيروت 1986م.

والكتاب الخاص بصلاح الدين على الرغم من صغر حجمه، إذ وقع في (95) صفحة من القطع الصغير، إلا أنه كتاب ماتع امتاز بسلاسة العرض من جانب مؤرخة قديرة، تعد أول مؤرخة مصرية وعربية حديثة، خاصة أن المؤرخات اللائي كتبن عن صلاح الدين في العالم العربي قليلات، إذا ما قورنَّ بالمؤرخين الرجال.

مرة أخرى، أقرر أن العبرة في تقييم الكتب ليست بالحجم، بل بالمحتوى، فهذا الكتاب الذي صدر عام 1986م؛ أي منذ (20) عاماً تقريباً، لا يزال يمتعنا بعد كل تلك الأعوام.

لعل تلك السطور تخاطب ضمير المسؤولين عن الثقافة في مصر، فيقوموا بتكريم تلك المؤرخة الرائدة القديرة، ويعيدوا طبع مؤلفاتها القيمة، ومنها كتاب صلاح الدين الأيوبي بطل وحدة الصف الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله؛ إذ إن طبعه يعيد إحياء ذكرى أستاذتنا د. سيدة إسماعيل كاشف، فـ«الذكرُ للإنسان عمرٌ ثانٍ»، كما قال أمير الشعراء خالد الذكر أحمد شوقي.

-50-

هل كان صلاح الدين سعيداً؟

تساءلتُ مع نفسي خلال رحلتي مع صلاح الدين: هل كان ذلك القائد سعيداً؟

في واقع الأمر، يختلف الناس في تحديد مفهوم السعادة، فالبعض يرى أنها في المال، والبعض الآخر يراها في الأبناء، وهناك من يتصورها في ممارسة هواياته المتعددة، بينما يراها آخرون في حب الله تعالى خالق كل شيء.

هكذا هناك تصورات متعددة عن مفهوم السعادة، والشاعر والفيلسوف إيليا أبو ماضي (1889- 1957م) قال:

كن جميلاً ترى الوجود جميلا

أي أنك تسعد إذا أردتَ أنت ذلك!!

لقد أعدّ عالمان هما كوبر ما جكوسكلي وموروفي لانجيز، من جامعة ميتشجان بالولايات المتحدة الأمريكية، كتاباً عنوانه «السعادة تحت أمرك»، وقد قررا أنهما أجريا تجارب على نحو (10,000) شخص فيما يتصل بمفهوم السعادة، وقررا أنهما وجدا مشقة كبيرة في إقناع الناس أن السعادة ممكنة، وأنها عند أطراف الأصابع، على شرط أن تكون هناك أصابع قادرة على أن تمتد وتنتقي، وأن يؤمن الإنسان بأن كل شيء ممكن، وتلك الفكرة أوردها الكاتب الكبير أنيس منصور في كتاباته.

أعود الآن إلى سؤالي الأصلي: هل كان صلاح الدين سعيداً؟ في تقديري أن سعادته لا يمكن فصلها عن سعادة المسلمين أنفسهم في عصر الصراع بين الهلال والصليب، ولا شك أنه كان سعيداً يوم 4 يوليو عام 1187م، وهو يوم موقعة حطين، وكذلك عندما فتح المسلمون بقيادته بيت المقدس، في 2 أكتوبر من نفس العام.

ومع ذلك علينا أن ندرك أن اليومين المذكورين تحققا بالكفاح و النضال، والعرق والدموع، وبالتالي أدرك أن سبيل السعادة هو المشقة، كذلك أيقن أن كل سعادة في الدنيا زائلة، وأن الله يمنح العبد مفهومه الواعي للسعادة، وأن من عاش لنفسه لم يفهم الحياة جيداً، أحياناً أتصور أن ذلك السلطان بعد عشرات المعارك والقتلى والجرحى، رحل سعيداً بعد أن حقق حلم المسلمين باسترداد بيت المقدس من أيدى الغزاة الصليبيين، والسؤال الآن: هل تسعد قلوبنا مرة أخرى إذا عادت إلى حضن الإسلام والمسيحية وتخليصها من أبناء نجمة داوود؟!!!

رحم الله صلاح الدين الذي أسعدني بأن أؤلف عنه عدة كتب، أعتبرها – بحق – نقطة في محيط تاريخه الحافل بالأمجاد!!

-51-

صلاح الدين معمارياً

الصورة الذهبية العامة والشائعة عن صلاح الدين لدى أغلب الناس، أنه فارس يمتطي صهوة حصانه ممسكاً بسيفه، محارباً الصليبيين.. إلا أننا علينا إدراك أنه كان معمارياً وبناءً، يدرك بعمق أن البشر يرحلون، وتبقى آثارهم تنطق شاهدة عليهم، بل تصرخ بالتاريخ حتى بعد رحيلهم بقرون عديدة.

قدمت لنا المؤرخة الفلسطينية عبلة المهتدي الزبدة، دراسة ماتعة عنوانها: «صلاح الدين وتحرير القدس»، وقد أصدرتها في عمان بالأردن عام 2001م، وفيها ذكرت أهم المؤسسات التي أقامها، وتمثلت في الآتي:

- الخانقاه الصلاحية.

- المدرسة الصلاحية.

- كتَّاب صلاح الدين.

- الزاوية الختنية.

- الزاوية الجراحية.

أما الخانقاه الصلاحية؛ فهي أقدم خوانق القدس المعروفة، ويُعد صلاح الدين، أول من أقام الخوانق، وهي أماكن يأوي إليها المتصوفة – في فلسطين – و قد أمر بتحويل دار البطرك القريبة من كنيسة القيامة إلى الخانقاه المذكورة عام 1187م، وقد وقفها على السادة المشايخ الصوفية والشيوخ والكهول والشبان البالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم.

كان أول من تولى أمر مشيخة الخانقاه، هو الشيخ غانم بن علي بن حسين الأنصاري الخزرجي، ومن بعده توارث أمرها كثيرون من بني غانم.

- أما المدرسة الصلاحية، فتعد من أشهر مدارس القدس، وظلت قائمة طوال ستة قرون، من عام 1192م إلى أواخر القرن الـ 18م.

وقعت المدرسة المذكورة داخل سور القدس الذي يعرف باسم باب الأسباط، وقد أوقف عليها ذلك السلطان الأوقاف لضمان استمرارها في تأدية رسالتها، ومن بين تلك الأوقاف: قرية سلوان، وقرية القسطل، وقرية صوبا، وأرض الجسمانية، وبستان بير أيوب، و(81) دكاناً في سوق العطارين، و(12) دكاناً بباب حطة، ودكانٌ بباب السلسلة، وحمام باب الأسباط، وفرنٌ بباب حطة وغيرها كثير.

وتختم مؤرختنا الفُضلى حديثها عن تلك المدرسة قائلة: «وهكذا ظلت الصلاحية منارة علم وحضارة في بيت المقدس زهاء ستة قرون من الزمن، فكانت ذات أثر بارز كمعهد من معاهد العلم في العالم الإسلامي».

من المنشآت الحيوية التي أقامها صلاح الدين في بيت المقدس، البيمارستان الصلاحي، وذلك عام 1187م، وقد عهد بأمره إلى القاضي والمؤرخ بهاء الدين بن شداد (ت1231م).

وقد احتوى البيمارستان المذكور على العديد من الأقسام، فهناك – على سبيل المثال – قاعة للجراحين، وأخرى للكحالين، أو أطباء العيون، وأخرى للأمراض العصبية، وهكذا أوقف ذلك السلطان العديد من الأوقاف على ذلك البيمارستان المذكور حتى يتمكن من أداء واجبه على أكمل وجه وأحسن صورة، ومن أمثلتها (39) بيتاً في أحياء مختلفة من القدس، و(51) دكاناً ومخزناً، ومعصرة، وأرض كرم قرب باب العمود، ومزرعة في حارة بني سعد، ومجموعة من الأقبية.

ظل هذا البيمارستان مستمراً إلى أن وقع زلزال مدمر عام 1485م أتى عليه، وإن لم يقض على سيرة مشيده الذي اهتم بالرعاية الصحية في عصره شأن اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى.

من بعد ذلك في عام 1869م، وهب السلطان عبد الحميد أرض البيمارستان إلى الدولة الألمانية، حيث أقام الألمان كنيسة عُرفت باسم «كنيسة المخلّص الإنجيلية» أو اللوثرية وذلك بمناسبة زيارة ولي العهد الألماني لمدينة القدس، وقد قام الإمبراطور ويلهام الثاني

بافتتاح الكنيسة المذكورة عندما زار المدينة المقدسة عام 1898م.

كذلك أقام صلاح الدين دار الكُتاب لتعليم الصبية الصغار القرآن الكريم، وحفظه، ووقف عليه الأوقاف هو الآخر كي يقوم بتخريج جيل يحفظ كتاب الله تعالى.

أما الزاوية الختنية؛ فقد أقامها السلطان خارج السور الجنوبي للمسجد الأقصى، ووقفها على رجل من الصالحين هو الشيخ محمد بن أحمد الشاش، واستمرت قائمة حتى القرن ال 18م، هناك أيضاً الزاوية الجراحية بالقدس من جهة الشمال ووقفت على جانب الطريق إلى نابلس.

هكذا، يتأكد لنا بجلاء أن ذلك السلطان لم يكن فارساً للحرب فقط، بل فارساً من فرسان الحضارة، والآثار التي شيدها أكدت عروبة وإسلامية القدس التي هي عربية حتى النخاع منذ فجر التاريخ، والأرض والحجر هناك تهتف بعروبتها مهما حاول الباحثون عن الوهم تأكيد ما لم يؤكده التاريخ!! ولن يؤكده من قبل ومن بعد بإذن الله تعالى.

-52-

مأساة سوريا وابنتها دمشق

عندما زرت دمشق عام 2010م، حيث يرقد ذلك السلطان الأشهر بين أعلام عصر الحروب الصليبية، لم يدر بخلدي لحظة واحدة، تلك الأحداث الدموية والمدمرة التي حلت بسوريا العزيزة من بعد ذلك بشهور قليلة، ولا تزال تئن من جرائها على مدى خمس سنوات!!

كنت أتصور أنني عائد إليها في العام التالي، ولكن مرت أعوام وأعوام وأنا لا أستطيع الذهاب إلى هناك، خاصة أن الأصدقاء السوريين أخبروني أن مطار دمشق مغلق.

كيف السبيل إلى السلطان الآن؟ ألا يكفي أن هناك فاصلاً زمنياً بيني وبينه يبلغ نحو تسعة قرون؟! لا، بل أضيف إليه فاصلاً آخر

هو تلك الأحداث المؤسفة التي تدمع لها العين ويتمزق لها القلب في سوريا العزيزة!!

بحثت عن الطلاب السوريين كي أحادثهم عن بلدهم العزيز، لعل ذلك يروي ظمئي لزيارة دمشق العزيزة!!

تحادثت مع الدكاترة السوريين في جامعة الشارقة، حديث الألم و المرارة والحسرة، من ذا الذي يدلني عن أية أخبار عن ضريح صلاح الدين؟!

هل حارس الضريح حيٌّ يرزق؟ وهو من محافظة ريف دمشق، وقد تحدثت معه على مدى ثلاثة أيام، وقدم لي مادة علمية مهمة عن زوار الضريح، وعن جنسياتهم وأوقات زيارتهم.

وأخبرني بعض الطلاب أن حصن الأكراد الواقع في الطريق بين حمص وطرابلس أصابه شيء من التدمير، وهو الحصن الذي حاول السلطان وجيشه إسقاطه دون جدوى.

أذكر القارئ العزيز أن سوريا شقيقة جغرافية وتاريخية أبدية لمصر، وإذا أصيبت حلب بسوء، بكت لها أسوان!! ولا يكتب تاريخها بدون مصر، ولا يكتب تاريخ أرض الكنانة دون شقيقتها سوريا، وهذا هو القدر الرائع والجميل!!

مع ذلك لديَّ يقين تام أن دمشق ستعود أجمل مما كانت، وسأزور السلطان، ولن يمنعني بإذن الله تعالى أي شيء، طالما الإرادة القوية موجودة، ومن يدري لعلي أؤلف كتابًا بعنوان «رحلة العودة إلى صلاح الدين»!!

-53-

دفاعٌ عن صلاح الدين

عندما كنت أعمل في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أبها، تعرفت على مؤرخ نابه هو د. سعد بن سعيد الحميدي، المتخصص في تاريخ المشرق الإسلامي، وقد حصل على الدكتوراه من جامعة مانشستر تحت إشراف المؤرخ البريطاني الشهير بوزروث Bosworth، في موضوع «كرمان وبلوشستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي».

يمتاز المؤرخ المذكور بدقة الملاحظة، والاهتمام الكبير بالجغرافيا، باعتبارهما مدخلاً مهمًا لفهم التاريخ، وقد قدمتُ له ذات يوم مسودة كتابي: «الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية»، فقرأ ما كتبت وقدم لي وجهة نظره التي قدرتها تماماً.

ذات يوم، تناقشت معه عن صلاح الدين الأيوبي، وكانت رؤيته أنه قصَّر في التعامل مع الصليبيين، وكان الأجدر به مواصلة جهوده الحربية من أجل طردهم تماماً من بلاد الشام، وتحريرها منهم، وبعبارة أخرى موجزة: هناك تقصير واضح في مواجهة الصليبيين.

قمت بالرد على هذه المقولة من خلال الآتي:

1- كان الجيش الأيوبي مجهداً منهكاً بعد حرب استنزاف طويلة ضد الصليبيين، ثم معركة حطين الحاسمة والفاصلة في 4 يوليو 1187م، ثم معركة عكا 1189-1191م وسقوطها في قبضة الصليبيين، وأخيراً معركة أرسوف في 7 سبتمبر عام 1191م، وبالتالي كان لابد من أن يطرق أبواب الدبلوماسية بعد عَجْزِ جيشه عن الحسم العسكري، وكذلك عجز الصليبيين أنفسهم بكل إمكانياتهم الضخمة، وبالتالي كان الاستمرار في الحرب نوعاً من الجنون، ولم يكن هناك سوى التدمير لجنود الطرفين دون جدوى.

2- في حالة تمكن صلاح الدين من الاستمرار في الحرب لفعل لذلك، لكنه هذه هي قدراته، وبالتالي لا نطلب من البطل التاريخي ما يفوق إمكاناته.

3- لا ننسى أن هناك ضغوطاً مورست عليه، فكبار القادة كانوا قد ملوا من الاستمرار في الحرب، وكان السلطان يخشى حدوث تمرد في الجيش الأيوبي، وهو الأمر الخطير الذي كان يريد أن يتجنبه بكل وسيلة ممكنة.

4- إذا كان من شأن الدبلوماسية إيقاف الحرب، وحفظ الدماء، وتمكين المسلمين من إبعاد قوى الغرب الأوروبي الداعمين للصليبيين

في الشرق، فذلك هو أفضل الوسائل، بدلاً من الاستمرار في حرب مجنونة لا طائل من ورائها.

5- كان توجه صلاح الدين إلى الحل الدبلوماسي والتوقف عن مواصلة العمليات الحربية، دليلاً على حكمته وحنكته، وأنه لم يكن يسعى إلى مجد شخصي على جماجم جنوده، وبالتالي أكد لنا أنه سياسي قدير ودبلوماسي له شأنه، ونحن نعلم جيداً أن الحرب هدفها كسر إرادة الخصم، وإجباره على تقديم تنازلات عندما يجلس الطرفان على مائدة التفاوض بعد انتهائها، وحيث أن الصليبيين لم يتمكنوا من كسر إرادة صلاح الدين وجيشه، وظل يحتفظ ببيت المقدس، كذلك لم يتمكن هو من إنزال خسائر فادحة بهم كي يجبرهم على الرحيل عن المنطقة، لذلك كانت الدبلوماسية هي الحل، ولا ننسى أن تلك الأخيرة هي حرب من نوع آخر من خلال التفاوض، وقد أبلى العادل أبو بكر شقيق صلاح الدين بلاءً حسناً إلى أن تم التوصل إلى صلح الرملة في 2 سبتمبر 1192م، وهو ذروة العمل الدبلوماسي الأيوبي، خاصة أن المدينة المقدسة المذكورة لم يتم التفريط فيها.

6- من الملاحظ أن المؤرخين الذين تستهويهم العمليات العسكرية والحروب عموماً، يعجبون بأبطال التاريخ الذين لا يتوقفون عن امتطاء صهوات خيولهم، ويحاربون دون كلل أو ملل!! وليست هذه وظيفة الحرب في التاريخ؛ فوظيفتها الحقيقية تتمثل في الدفاع عن الأرض والعرض وحماية الأديان من عدوان الآخرين المعتدين، فإذا حققت أهدافها آن للسلام أن ينشر أجنحته البيضاء، ليعم كل الناس، ويتم غلق صفحة الماضي إلى غير رجعة.

عبر صفحات كتابي هذا، أتوجه بالشكر لصديقي د. سعد الحميدي، الذي لا أزال أتذكر حديثه معي عن ذلك الفارس بعد 25 عاما من لقائنا.

-54-

أخطاء صلاح الدين

ذات مرة، كنت ألقي محاضرة في جامعة الشارقة، عنوانها: «صلاح الدين الأيوبي فارس الحضارة الإسلامية»، وكان مقدمي رئيس القسم المتخصص أصلاً في العلاقات الدولية وليس التاريخ، خاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، وإذ بالمقدم «الموقر» يقول قبل أن أبدأ محاضرتي: «إن دكتورنا المحاضر متعصب للغاية لصلاح الدين، ولا يرى له خطأً واحداً»!!

قدمتُ محاضرتي ورتبتُ أفكاري فيها تماماً – وبفضل الله تعالى من قبل ومن بعد – قدمت كيف يفهم صلاح الدين من خلال أنه ابنٌ بار من أبناء الحضارة الإسلامية، وفي ظل خصائصها المعروفة في صورة التسامح، والنبل، والعدل، وغير ذلك.

وذكرت الأخطاء التي وقع فيها؛ إذ لا يوجد قائد واحد في التاريخ إلا وله أخطاؤه، إلا محمداً عليه الصلاة والسلام وهو أشرف الخلق المصطفى المختار!!

أما أخطاء صلاح الدين فهي كالآتي، كما ذكرتها في المحاضرة:

1- مكتبة القصر الفاطمي الزاخرة بالمؤلفات كان من الممكن التعامل معها بصورة أفضل مما حدث لها فعلاً.

2- يتحمل مسؤولية هزيمة معركة تل الجزر عام 1176م، نظراً لعدم اهتمامه بالكشافة وعدم إقامته لقلاع يمكن الانسحاب إليها في وسط سيناء.

3- يتحمل مسؤولية هزيمة معركة أرسوف 1191م، على الرغم من أنها معركة محدودة النتائج لا تقارَن أبداً بحطين عام 1187م.

4- لم يستجب إلى نصائح أطبائه الذين كانوا يطلبون منه أن يخلد إلى الراحة، وبالتالي كانت الصحة هي الثمن كما يقال؛ على نحو أكد على أن دخول التاريخ – عموماً – يتطلب ثمناً من أجله!

هذه الأخطاء تُعد قليلة إذا ما قورنت بحجم الإنجازات التي حققها المسلمون تحت قيادته، والتي أكدت بجلاء أننا أمام قائد تاريخي ضحى بنفسه سعيداً في سبيل أمته، ولتحرير بيت المقدس زهرة المدائن التي كان تخليصها من الصليبيين بمثابة الحلم الذي داعب مخيلة المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

بعد انتهاء محاضرتي، عقَّب صفوة من أبناء بلاد الرافدين العزيزة، ودافعوا عني، وأكدوا موضوعيتي، وأنني لم أقع في أسر كاريزما ذلك القائد البارز.

سلام عليك يا صلاح الدين بإيجابياتك وسلبياتك؛ فليس هناك من البشر من يُعصَم من الزلل.

-55-

صلاح الدين وفرنسا

في تقديري – من خلال رحلتي الطويلة مع صلاح الدين – أن قيمته في التاريخ تتمثل في نجاحه مع جيشه في إسقاط المشروع الذي قادته فرنسا في العصور الوسطى؛ إذ أن فرنسا هي أم الحروب الصليبية، وكانت مملكة الغرب اللاتينية ذات طابع فرنسي، حكمها ملوك فرنسيون وكانت لعبة فرنسية في العصور الوسطى، ولم تكن فرنسا لتسمح أبداً بالقضاء على الوجود الصليبي في شرق البحر المتوسط Levant، لذلك قامت بإرسال الحملات من غرب أوروبا لإنقاذ ذلك الكيان الذي غرس وزرع عنوة في تلك المنطقة.

الأمر المؤكد أن معركة حطين كانت نقطة حاسمة لأطماع فرنسا

في الشرق، ثم جاءت الحملة الخامسة والسابعة والتي صاحبَها الفشل المبين، على نحو أكد بجلاء أن رغبة فرنسا المسعورة في تكوين مستعمرات لها في الشرق، بدأت تذهب أدراج الرياح.

وعندما انتهت الحروب الصليبية في الشرق، صار صلاح الدين رمزاً لتحرير الشرق من سيطرة الغرب!!.

وعندما غزت فرنسا الجزائر العزيزة وارتكبت المذابح التي تقشعر لها الأبدان باعتراف المنصفين من الفرنسيين، كان صلاح الدين رمزاً للتحرير في مخيلة المجاهدين الجزائريين الذين عبروا بحراً من دماء الشهداء بلغ 10 ملايين شهيد، على مدى 130 عاماً من الاحتلال الفرنسي، وصولاً إلى لحظة الحرية والاستقلال، هكذا تأكد لنا أن صلاح الدين وقيادته للمسلمين في العصور الوسطى، واجه فرنسا في بلاد الشام، وواجهها بعد رحيله في الجزائر، وكذلك في كل بقعة قدم فيها المستعمر الغربي الغازي الذي طمع في خيرات الشرق.

في مقدورنا القول إن مصالي الحاج، وبن بيلا، وهواري بومدين، والشاذلي بن جديد، ومفدي زكريا وغيرهم من قادة الجزائر في عالمي السياسة والأدب، كان صلاح الدين بمثابة الرمز والقدوة لهم، على نحو أكد لنا بجلاء أن أبطال التاريخ لا يموتون أبداً، بل تظل ذكراهم قائمة تنمو حتى تصبح غابات عشق وبساتين مودة دائمة الاخضرار، لا يعرف الخريف الحزين طريقاً إليها، ولا تتساقط أوراقها أبداً!!

عندما زرت صلاح الدين في دمشق العزيزة وجدت سائحين من فرنسا يزورون قبره، وأدركت على التو كيف أن غزاة الشرق

أعجبوا بتسامحه، كذلك بعد رحيله أتى إليه أحفادهم من الغرب الأوروبي لزيارته وتحيته.

فبوركتَ أيها السلطان خالد الذكر، لقد اعترف الأعداء بفضلك وخلُقك، وأنك بالفعل ابن الحضارة الإسلامية المتسامحة مع الآخر ديناً، وعرقاً، وجنساً؛ فهزمتهم في عقر دارهم، وهذا هو الانتصار الحقيقي بعد رحيلك عام 1193م.

في كل مكان سيأتي فيه الغرب مهاجماً ديار العرب والمسلمين، سيجد صلاح الدين رمزاً للبطولة والفداء!! فكيف يمكن القضاء على أسطورته؟ لا يزال اسمه يكتب على جدران القدس التي عشقها، وحررها ومعه المسلمون!!.

هكذا، مات جسداً وظلت روحه وتاريخه النابض بالحياة، يبعث روح الصمود في نفوس كل المستضعفين من جراء أطماع الغرب في ثروات الشرق!

قد يرى البعض في السطور السابقة دليلاً دامغاً ضد كاتبها، على سقوطه «فريسة» كاريزما القائد المذكور، إلا أن الرد على ذلك، استمراره طوال تلك القرون بقوة، ليس على الصعيد الرسمي، بل على الصعيد الشعبي، وهذا هو المهم!!

-56-

تقصيري مع نور الدين محمود

عندما زرت دمشق الساحرة الرائعة، الجميلة، التي يفوح منها عبق التاريخ وذكرى أمجاد الأيوبيين، وصولاً إلى ابنها البار يوسف العظمة مروراً بالسلطان خالد الذكر، عندما كنت هناك، ارتكبت خطأً في حق نفسي، ما زالت روحي تؤنبني عليه.

إنه عدم قيامي بزيارة ضريح نور الدين محمود (1146-1174م)، ذلك القائد البارز الذي أنفقت (4) سنوات كاملة من عمري في دراسة سياسته الخارجية خلال إعداد أطروحتي للدكتوراه فيما بين عامي 1984- 1988م.

لقد شُغلت بالتلميذ، أي صلاح الدين، عن زيارة الأستاذ أي نور الدين محمود.

حرمتُ نفسي دون أن أدري من ذلك الأمر، لقد كان همي الأول والأخير صلاح الدين، وتسجيل خواطر رحلة عنه، والآن أفتقد زيارة الاثنين معاً بعد أحداث سوريا الدموية.

أتساءل مع نفسي: كيف نسيتُ زيارة ضريح نور الدين محمود، البطل الذي علَّم صلاح الدين فنون الحرب والسياسة والدبلوماسية؟!

في واقع الأمر، هناك خمس شخصيات أثرت جينياً وتربوياً في صلاح الدين، هم: والده، ووالدته، ونور الدين محمود، وأسد الدين شيركوه، وبهاء الدين بن شداد. وبدون إدراك هذه الحقيقة التي أراها مؤكدة، لن نفهم ذلك القائد وسياساته بل وسلوكياته الشخصية. ذلك كله يؤكد أننا عندما نكتب تاريخ صلاح الدين، في الواقع نكتب تاريخاً جماعياً وليس فردياً، لأنه كان نتاجاً لعصره وقياداته التي تعايش معها وتعلم منها، ثم كانت له «شخصيته» التاريخية المستقلة التي دخل من خلالها التاريخ من أوسع الأبواب.

فيما بعد، رزقت ابنتي الغالية دالية بطفل أسميناه نور الدين محمود، وبالتالي صار هذا الاسم معنا دوما بإذن الله تعالى، على نحو عوضني عن تقصيري في زيارة مهندس حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي.

-57-

صلاح الدين وأعلام العراق

خلال رحلتي مع صلاح الدين، لم أستغرب ميلاده بتكريت بالعراق العزيزة؛ إذ أنجب العراق على مدى تاريخه قديماً ووسيطاً وحديثاً كوكبة من الأفذاذ على نحو يصعب إحصاؤه.

ويا عزيزي القارئ إذا ذكر العراق، تذكرنا ملحمة جلجامش، وهي أول نص يكتب بعد حادثة الطوفان الشهيرة، وكذلك حمورابي القانوني العظيم، الذي لا يخلو كتاب في تاريخ القانون على مستوى العالم من ذكره وتقديره. وقد سبق سولون الإغريقي بقرون طويلة ممتدة، كما لا ننسى سميراميس الملكة الأشورية ومعنى اسمها (الحمامة)، وكذلك لا نغفل حدائق بابل المعلقة التي كانت من عجائب العالم السبع!!

أما من أعلام العراق؛ فأذكر منهم وسيطاً وحديثاً في عالم الشعر أبا الطيب المتنبي، والجواهري، وبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، وعبد الصاحب مهدي.

وفي عالم الطب أذكر موفق الدين عبد اللطيف بغدادي، وابن جزلة البغدادي. ويكفي أن أطالع كتاب عبد الحميد العلوجي بعنوان «الطب العراقي»، الذي أصدره في بغداد عام 1967م، حيث أورد مئات من أعلام الطب هناك.

وفي مجال التاريخ؛ فليفاخر العراق العزيز بإنجاب عز الدين ابن الأثير الجزري، وابن خلكان، والنديم، وبهاء الدين بن شداد، وابن المستوفي، وغيرهم، ويكفي العراق فخراً إنجابه لأبي جعفر المنصور، والمهدي، وهارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم، وغيرهم من كبار الخلفاء العباسيين، الذين لا يُكتب تاريخ المسلمين في العصور الوسطي دون ذكرهم. هكذا، يتأكد لنا أن العراق منجب الأفذاذ والمبدعين، ولا أبالغ إذا ذكرت أن جينات الحضارة تحت جلد العراقيين وكذلك المصريين، كما ذكرت ذلك إحدى عالمات الاجتماع الأمريكيات.

ألم تعلم يا عزيزي القارئ بأن العراق أنجب ذلك الفارس المغوار في عصر الحروب الصليبية، واعتنى به صلاح الدين فحمل معه جينات حضارة أرض الرافدين التي قدمت للعالم واحدة من أعرق الحضارات التي عرفتها البشرية!!

-58-

كلمة أخيرة

وبعد، فتلك صفحات قليلة عن رحلة طويلة ممتدة منذ أن تلقيت محاضرات أستاذي د. إسحاق عبيد في قاعة (107) بقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة عين شمس – عام 1978، حتى كتابة هذه السطور، استغرقتُ أعواماً عديدة، أدرس فيها عصر الحروب الصليبية، وذلك الفارس الذي لم أجد كتاباً يتناول ذلك الصراع العالمي في العصور الوسطى إلا وأجد اسمه أمامي، وكأنه يناديني عبر القرون: «ابحث عني كي تجدني»!!

طالت رحلتي معه، إلا أنها كانت أكثر من ممتعة، وأكبر من كونها رائعة! العجيب في الأمر أنني كلما بحثت؛ أدركت مدى ثراء

تلك الشخصية التي هي ابنة عصرها العامر بالصراعات الحربية والحضارية، وبالتالي هي معبرة عن ذلك العصر بكل ما فيه.

كثيراً ما قال لي البعض: «كفاك كتباً عن صلاح الدين الأيوبي!!» وأردد قائلاً: «إنه القدر!!» إذ كلما فرغت من كتاب انتقلت إلى آخر بقدرية تامة، وتأكد لكاتب هذه السطور أن المؤرخين يساقون إلى أقدارهم لا شك في ذلك.

وأحياناً أتساءل مع نفسي: هل كان السلطان خالد الذكر، يتصور لبرهة أن مؤرخاً ما سيكتب عنه نحو (12) كتاباً ؟! لا أتصور بالطبع ذلك، وإن كنت على يقين أن بطل حطين كان يدرك أهمية التاريخ بصورة كاملة، ولذلك لم يضيع وقته إلا فيما يجعله خالداً فيه بإذن الله تعالى.

في رحلتي بحثت عن الرجل في كل مكان؛ في دمشق، في القاهرة، وفي الإسكندرية، وفي إسطنبول، وفي الشارقة وفي دبي من خلال المكتبات، وبحثت عنه على شبكة الإنترنت، وتحادثت مع الكثيرين عنه وسافرت إليه حيث يرقد في دمشق.

ذات يوم، قال لي صديقي أ. سامي محمد المرسى الإعلامي الذي يكتب لي كتبي على الحاسوب: «ألم تقل لي أنك ستكتفي بهذا الكتاب الذي أكتبه لك؟» فأجيبه: «كل كتاب كان يذهب بي إلى الآخر، وأصارع نفسي كي لا أكرر ما ذكرته من قبل، وكنت أدعو الله تعالى في صلاتي أن يرزقني بالأفكار الجديدة عن رجل يرقد في دمشق ولا يزال يحرك ـ بإذن الله تعالى ـ العالم الإسلامي بصورة مدهشة من خلال قيادته للمسلمين ـ الذين آمنوا به عن حق ـ نحو

تحرير بيت المقدس من دنس الصليبيين!! أحياناً تتردد فكرة مهمة في ذهني وهي أن تآمر الغرب على العرب والمسلمين عموماً في أعقاب الحرب العالمية الأولى (1914-1917م) وإصدار وعد بلفور الذي من خلاله أعطى من لا يملك وعداً دنساً لمن لا يستحق، ومن خلال ذلك تم زرع الكيان الصهيوني الدخيل على أرض فلسطين الطاهرة العزيزة الأبية النقية؛ بذلك العمل تعمق صلاح الدين أكثر وأكثر لدى العرب والمسلمين، باعتباره قائد تحرير بيت المقدس من دنس الصليبيين، ولذلك ظل رمزاً يفيض بالحياة للسلطان المجاهد!! هكذا قدم غزاة اليوم لصلاح الدين فرصة ذهبية كي يظل البطل الرمز ويرتبط اسمه بالقدس التي لم ولا ولن ننساها ما حيينا!! قد يظل بها الغزاة اليوم عقداً أو عشرة عقود، ولكنهم راحلون بلا شك؛ لأن الأرض تصرخ بعروبتها، وسيظل الصراع العربي – الإسرائيلي قائماً طالما بقي الشعب الفلسطيني مشرداً مشتتًا في أنحاء العالم دون أي ذنب جناه!!

تلك رحلتي مع صلاح الدين، ولديَّ الأمل الأخضر الوثاب أن يأتي من بعدي باحثون آخرون يواصلون المسيرة، فالتاريخ لم يقل بعد كلمته الأخيرة ولن يقولها.. وكاتب هذه السطور قدم جهده اليسير، وليكمل دربه الآخرون من أبناء مصر والعالم العربي والإسلامي؛ فإن السلطان صلاح الدين يستحق منا البحث الدائب الذي لا يعرف الملل ولا يصيب صاحبه كلل!

ختاماً، وداعاً يا صلاح الدين وإلى لقاء لعله قريب!!

الفهرس



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



كان لصلاح الدين الأيوبي أكبر الأثر في تطوير الكتابة التاريخية عند المسلمين في عصر الحروب الصليبية، وخاصة لدى المؤرخين العراقيين والشاميين، وهو أمر يدعونا إلى تأمل أثر البطل التاريخي في إثارة المؤرخين للكتابة عن عصره وإنجازاته حتى تكون نبراساً للأجيال التالية.

دائرة الثقافة الشارقة